قصر عمورية

اسم الكتاب: **قصر عمورية**

اسم المؤلف: **عادل غالي**

تدقيق لغوي: **بسمة محمد**

تصميم الغلاف: **ضياء إبراهيم**

تنسيق داخلي: **مينا تادرس**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٢٢٧٢**

الترقيم الدولي: **٩٧٨٩٧٧٨٤٤١٠٥٣**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

Email: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

عادل غالي

قصر عموريت

إبهار
للنشر و التوزيع

إهــداء

إلى..

زوجتي الحبيبة "زويـــا"

إلى..

بنـات عمري

"سيلا – أسيل"

إلى..

صديقي العزيز

عبد الهادي أحمد

المقدمة

حدثٌ بســـيط يأتي إليك بغتة وتظن بأنه هلاكك المنتظر، ولكن في نهاية المطاف تتفاجأ بأن هذا الحدث قد جاء من أجل كشف حقيقة البشـــر التي كانت تحت ستار مخفي أخفاه عنك ذلك القدر.

قصرعمورية

عادل غالي

- ١ -

في إحدى ليالي الشتاء القارصة، حيث هطول المطر الغزير الذي لم أشاهده من قبل في سنوات عمري الماضية، حيث أصوات الرعد التي تفزع كل من يسمعها وتجعله يرتجف فيركض مسرعًا من أجل الاختباء في زوايا المنزل، كل ما جال في خاطري هو أني جماد بلا إحساس متبلد المشاعر لا موجود في دنيا البشر، خلف زجاج النافذة في غرفتي واقفًا أنا ممسكًا بستارها وعيوني على المطر الذي أغرق الشارع بأكمله وجعل منه بحيرة لا يعبر فيها إلا من يستطيع السباحة، أصوات البرق والرعد في تزايد مستمر وكأن القيامة قد أعلنت عن موعدها المنتظر، أما حفيف الأشجار فكفيل على تأكيد تشبيهي لهذا الجو الذي لم أرَ مثله قط، وفجأة انطفأ المصباح الوحيد المنار في شارع قصري، وأصبح الشارع بأكمله وكأنه كهف مظلم أو مقبرة يقطن فيها أناس كانوا معنا منذ زمن بعيد. تركت ستارالنافذة وخطوت ثلاث خطوات في تخاذل شديد، ثم قمت بتحريك المقعد الخشبي الذي تركته منذ سنوات كي أجلس عليه، ثم

ألقيت نظرة عابثة إلى مكتبي الخشبي الذي كان مفضلًا لدي منذ فترة ليست بشهور بل سنوات زادت عن العشر وأكثر، حيث دفتر ملاحظاتي لا زال في مكانه مثلما كان وكأنه في انتظاري، وبجوارالدفتر قلمي ذو البريق الذهبي الذي أعطتني إياه منذ فترة زمنية مضت، بريق قلمي حرك مشاعري تجاه هوايتي التي تركتها منذ سنوات بفعل عوامل التعرية التي قد أصابتني، كان وقتها هو المنقذ الوحيد لكي أسطر به حكاياتي وقصصي الطفولية التي كانت تعجبها، هي الوحيدة التي كانت تشجعني وتبث بداخلي روح الأمل والتفاؤل والحياة، ابتسامتها لي في صباحي ومسائي كانت كفيلة على إخراج أي حزن من فؤادي، كانت تبدو لي وكأنها ابتسامة صافية نابعة من قلبها الحاني، ولكنها في حقيقة الأمر ابتسامة مزيفة راقدة تحت تراب الأيام، فقلبها كان يتعثر ألمًا وينزف دمًا غزيرًا على شيء فقدته منذ سنوات بسيطة، ولكنها كانت تسعى جاهدة بألا تظهر لي شيئًا لأنني الحاجة الوحيدة التي أصبحت تمتلكها في عالمها الفاني فتود المحافظة عليها.

كانت حزينة مثلي، شاردة بعض الوقت، مستسلمة لأحزانها وجراحها، فكانت تأبى على نفسها سويعات الفرح النادرة التي تزورها كأعياد دينية متزامنة، أما أنا فكانت تركض وراء البسمة والفرحة كي ترسمها على ملامحي لأنني في نظرها بصيص الأمل الذي تحيا من أجله. فأمسكت بقلمي ثم فتحت صفحات مفكرتي وحاولت أن أسرد ما يجول في خاطري، ولكن صرخ قلمي في وجهي وتوسل إليَّ بأن أتركه وشأنه، فهو يأبى أن يتحدث عما حدث لي في سنواتي السابقة؛ لأنه عانى مثلما أنا

عانيت من قبل، قلمي يحس بي ويعطف عليَّ في أوقاتي العصيبة بعكس البشر الذين عايشتهم في سابق السنوات، فقد عشت حياة أليمة مشردة عبارة عن صراعات وحروب وأهوال بين أطراف كانوا لي من وجهة نظري حصن الأمان الذي يحجبني عن شياطين الإنس، تفكير طفولي.. حقًا كان تفكير طفل في الثالثة عشر من عمره، كان يرسم في خياله صورة مكتملة لأُناسٍ قلوبهم مثل البلابل المغردة فوق الأغصان، البلابل التي بصوتها العذب تشع بالحياة والأمل للبشر، هذه كانت الصورة المكتملة التي رسمتها بألواني الزيتية لهؤلاء، ثم أغلقت مفكرتي ووضعت القلم بجوارها مثلما كان، ثم نهضت من مجلسي ووقفت في منتصف الغرفة وألقيت عليها نظرة تأملية وعلى شفاهي ابتسامة ضائعة، وفجأة وضعت كفي على جبيني، يبدو وكأن الصداع قد عاد إليَّ من جديد، إنه صديقي في سنواتي الأخيرة.

المطر يبدو وأن موعده للصباح، وكأنه يريد أن يطهر الأرض من الذنوب التي فعلها البشر في حياتهم، أما صاعقة البرق والرعد التي تزلزل المكان فكفيلة على إفاقة البشرمن الغفلة التي يعيشون فيها، فانتبهت فجأة إلى ذلك الصوت في فزع، إنه زجاج النافذة قد أصدرأصواتًا مريبةً بفعل تأثير المطر والرياح، فتوجهت إليه وأغلقته بإحكام ثم أغلقت الستار بعدها، ثم تحركت خطوتين، فسرى في جسدي رعشة جعلتني أنتفض بالإضافة إلى صداع رأسي الذي يحولني إلى ثور هائج يريد الإطاحة بمن حوله، وحينما شعرت بالبرودة في جسدي توجهت إلى خزانتي الشخصية وأخذت منها معطفي الأسمر الداكن الذي يغطي ركبتي بقليل، أعلم أنه

لا يناسب عمري لأنه بالأخص صنع من أجل الشيخوخة وليس من أجل الشباب، ولكني أرى أنه مناسب لي لأن ما شاهدته في حياتي جعلني أبلغ من العمر أرزله، ثم أغلقت خزانتي وارتديت المعطف فهدأ جسدي رويدًا رويدًا، ثم خطر في ذهني أن أذهب إلى مطبخ القصر كي أقوم بعمل المشروب المفضل لي في مثل هذا الطقس، فتحركت وفتحت باب الغرفة وذهبت في الممر الطويل المؤدي إلى المطبخ وأعددت المشروب المفضل لي منذ أن كنت طفلًا، ثم ذهبت إلى غرفتي مرة أخرى وجلست على المقعد الهزاز حاملًا كوب السحلب الذي يقوم بدوره، وهو تدفئة معدتي، أتحرك بالمقعد ويتحرك معي المصباح المتدلي من سقف الغرفة، يبدو وكأن الهواء يشاغله ويلهو معه، إنه مصباح قديم يعود صنعه إلى فترة الستينيات، فعندما انتهيت من احتساء مشروبي وضعت الكوب على المنضدة القريبة من المقعد ثم عاودت من جديد التحرك بالمقعد ناظرًا إلى ذلك المصباح الذي شهد أحداثًا قديمةً في هذا القصر، وفجأة ظهرت من ذلك المصباح شرارات ضوئية بسيطة فجعلته مذبذبًا يُنار وينطفيء وكأنه غير راضٍ عن حاله، يبدو وأنه قد أعلن عصيانه وتمرده عن وضعه الذي استمر لسنوات، وكأنه يحدثني ويقول لي قد جاء الوقت المناسب كي أرتاح سيدي، وبالفعل انطفأ المصباح وبهذا قد أبلغني قراره النهائي أنه من حقه الاستقالة من أجل الراحة، فأصبح الجو ظلامًا كاحلًا لا أرى شيئًا من حولي والطقس ازداد سوءًا فجعل الرهبة والفزع تتملك مني، وإذ بأصوات غريبة تدق على مسامعي فجعلت نبضات قلبي في تزايد.

- ٢ -

كان يقود سيارته بصعوبة شديدة نظرًا لسوء الأحوال الجوية المتقلبة، فلقد تحول الطريق أمامه إلى بحيرة عميقة يكاد أن يغرق فيها، وفجأة تعطلت السيارة، فعلى أثرها تحدثت متسائلة:

- ماذا حدث أيها السائق؟

فأجابها قائلًا:

- لقد تعطلت السيارة سيدتي نظرًا لسوء الطقس.

فظهر الفزع على ملامحها.. ثم أردفت:

- وما العمل؟

- سأحاول مرة أخرى لعلها تُدار.

ثم حاول مرارًا وتكررًا في إعادة تدويرها، ولكن باءت محاولاته بالفشل، ثم أردف في شجن:

- للأسف، لا تعمل.

فتحول وجهها إلى اللون الأحمر من شدة خوفها، ثم تحدثت مرة أخرى متسائلةً:

- وماذا علينا أن نفعل الآن؟
- الانتظار للصباح سيدتي لعلنا نجد من يساعدنا.
- ماذا تقول؟ الانتظار للصباح.. يا إلهي!!!
- اهدأي سيدتي.. فلا يمكنني فعل شيء في هذا الوقت المتأخر؟
- كيف؟ عليك أن تحاول مرارًا.. فالطقس سيء للغاية والجو بالخارج غير مطمئن، ولا يمكننا البقاء في هذا المكان الذي لا نعلمه.

فاستجاب لطلبها قائلًا:

- حسنًا، سأذهب لأتفقدها من الخارج.

فتملك القلق والخوف منها فجعلها تلتفت يمينًا ويسارًا، وعلى إثر ذلك حدثها قائلًا:

- اهدأي سيدتي.. كل شيء سيصير على ما يرام.

فحدثته بنبرة منفعلة:

- كيف لي أن أهدأ وأنا في مأزق لم أتعرض له من قبل؟؟ فالمطر في تزايد وصاعقة البرق والرعد قد أعلنت عن غضبها الذي لا تراجع فيه.
- سيدتي! أنا مثلك قلق ومضطرب جدًا، فلا داعٍ لإثارة الرهبة داخلي.. سأذهب لتفقدها من الخارج.. لابد من توصيلكِ إلى بلدتك ورجوعي إلى زوجتي المريضة التي تلزم الفراش.

وفجأة ارتطام قطرات المطر الشديدة بزجاج السيارة أفزع أخاها الأصغر وسبّب صحيانه من سباته، فحدثها قائلًا:

- أختي، ماذا حدث؟!!

فحاولت ضمّه إلى صدرها كي يطمئن، ثم حدثته في شجن:

– اطمئن يا آسر.. إنه المطر بالخارج قد ارتطم بزجاج السيارة فهو الذي أصدر هذا الصوت. فحدثها الطفل قائلًا:

– وكيف لي أن أهدأ؟؟ وأنا أرى ظلامًا حولي وأصوات الرعد لا تهدأ والرياح تحرك فروع

الشجر وكأنها أشباح مخيفة!! الجو مرعب يا أختي.

فحاولت أن تزرع في داخله الاطمئنان والثبات، وهي في داخها تموت رعبًا، فأردفت قائلةً:

– لا تقلق.. كل شيء سيصير على ما يرام.

فتحدث السائق قائلًا:

– سيدتي عليكِ أن تتحلي بالثبات من أجل صغيرك.

ثم وجّه حديثه للطفل قائلًا:

– لا تقلق يا صغيري.. إنَّ الله معنا.

ثم حاول فتح باب السيارة كي يتفقدها، ولكن الباب كان مغلقًا، يبدو أنه تجمد بفعل التغيرات الجوية.. فتحدث في قلق قائلًا:

– يا إلهي ماذا حدث له؟؟ باب السيارة لا يُفتح!

فتملك الفزع منها أكثر، ثم قالت:

– ماذا تقول؟!!

– سيدتي أرجوكِ تحلِ بالصبر والثبات.. لا تثيري قلقي أكثر من هذا.

– حسنًا أيها السائق، سأكف عن الحديث، ولكن من فضلك افعل شيئًا.. افعل شيئًا من أجلي ومن أجل صغيري.. افعل شيئًا من أجل والدتي التي في انتظاري.. افعل شيئًا من أجل فتاةٍ ليس معها غير الله وأنت.

ثم سالت عبراتها الحزينة على وجنتيها وتملك الضعف من بنيانها، فوضع كفيه على عيونها، وجفف دموعها في حنان، ثم أردف قائلًا:

– توقفي عن البكاء يا أختي.. إنَّ الله معنا.. وأنا معك أيضًا، فلن يحدث لنا مكروه.

فتأثر ذلك السائق من بكائها ومن حديث الطفل معها، إنه طفل يحمل في داخله الرعب، ولكنه يحاول جاهدًا من أجل بث الأمان في قلب أخته، فلهذا حاول أن يفتح باب السيارة مرة أخرى، ولكن النتيجة هي الفشل الحتمي، ولكنه لن يستسلم، لن يستسلم من أجلهما ومن أجل زوجته المريضة التي في انتظار عودته، فحضر في ذهنه فكرة، وعلى إثرها نطق:

– سيدتي هل أجد معكِ مشبكًا للشعر؟

فأجابته، وهي في حالة استعجاب من أمره:

– نعم معي.. ولكن لماذا؟!!

– سيدتي مشبك الشعر هو طوق النجاة لنا.. أعطيني إياه ولعلنا نحظى بالوفاق.

– حسنًا.

فواصلت عملية البحث بين خصلات شعرها، يبدو أنه مختبأ من برودة الجو وعندما أمسكت به أعطته للسائق، فحاول السائق به مرارًا إلى أن فُتح باب السيارة، ثم تحدث:

– الحمد لله.. لقد فتح الباب سيدتي.

فأردفت قائلة:

– عليك الآن أن تترجل وتتفقد السيارة جيدًا.

– حسنًا سيدتي سأتفقدها، ولكن عليكِ الانتظار ولا تتحركي من أجل هذا الصغير. ثم قام بفتح باب سيارته في حذر نظرًا لسقوط الأمطار التي لا تريد أن تكف عن اندلاعها، ثم نظر إلى السماء متحدثًا في داخله:

– ربِ إني أتوسل إليك أن تكون معي في هذا الوقت العصيب.. أنت تعلم أنني أركض خلف رزقي؛ ولهذا ذهبت إلى هذه التوصيلة البعيدة من أجل أن أوفر ثمن العلاج لزوجتي.. أتوسل إليك يا أرحم الراحمين ألا تتركني في هذا المكان الذي لا أعلمه.. لقد وعدت زوجتي بأن أعود إليها كي أذهب بها إلى المشفى فأرجعني إليها سالمًا يا الله.

ثم ترجل من سيارته، وأغلق الباب خلفه متوجهًا إلى مقدمة السيارة، ثم رفع بابها وتفحص الموتور بواسطة ضوء الهاتف، ولكن غزارة المطر المتساقط أدت إلى انطفاء ضوء هاتفه فجأة، فتملكت الرهبة منه، ثم تحدث بصوت مرتفع ما كي يقطع رهبته التي اجتاحت كيانه قائلًا:

– سيدتي هل أجد معكِ كشافًا في حقيبتك؟ لقد تعطل هاتفي!!!

– ليس معي غير هاتفي، فلتأخذه ولعله يساعدنا.

– حسنًا.

ثم تحرك في حذر وفتح باب السيارة الخلفي كي يأخذ منها الهاتف، ولكنه وجد الفزع والخوف مرسوم على ملامحها.

- ٣ -

الأصوات في تزايد، والجو ظلام كاحل، والصاعقة في الخارج لا تهدأ، وأنا بمفردي في هذا القصر البعيد المتطرف عن البلدة بحوالي ثلاثة من الكيلومترات، هذا القصر الذي استقررت فيه في المهد وفيما بعد فترات الصبا وإلى أن تصعد روحي إلى السماء، مع أنني رحلت عنه لبضع من السنوات إلا أنني أشتاق إليه ولا أود مغادرته مع أنه مخيف من الداخل والخارج فيجعل الكل يهرب منه ولا يقتربه، باستثناء بائعة الحليب التي كانت تأتي إليَّ كل صباح، أعلم أنها مثل باقي سكان البلدة، ولكنها كانت تأتي لأمرين لا ثالث لهما؛ أولهما باحثةً عن رزق طفليها، وثانيهما أنها متيمة وعاشقة لي، كانت ترى أنني القمر الذي تتمنى أن تصعد له وتلمسه بأناملها وتثني إليه ولاءها كي يروي ظمأ فؤادها.

لقد رحل زوجها وهي في السابعة والعشرين من عمرها وتركها لحالها مع صغارها، فما كان عليها إلا أن تبيع الحليب من أجل توفير مأكلهما ومشربهما، أتت إليَّ منذ بضع سنوات وتسامرت معي بحديثها الفطري ولهجتها الفلاحية التي جعلتني أنصت إليها بكل جوارحي، لا أنكر أنني

في البداية كنت أعاملها معاملةً قاسيةً، أهينها كأنثى وأوبخها كي ترحل ولا تأتي ثانية، ولكنها كانت متيمة وتأبى أن تتركني ولو لحظةً واحدةً، فهدأتُ من ناحيتها وتركتها تأتي من أجل رزقها فقط، ولكن تطورالأمر بيننا وأصبح مثلما أرادت.

منذ سنوات وأنا لا أعلم شيئًا عنها، لقد ذهبت، ذهبت إلى أجلٍ غير مسمى، ذهبت بعدما تعودت على وجودها في حياتي المتناهية، حياتي المليئة بأشواك الذكريات المتبعثرة، كنت معها متناقضًا في كل شيء حتى في مشاعري المتذبذبة الهشة، كنت أعتقد أنها مثل الليل والنهار متعاقبين ولابد من وجودهما في هذا الكون ولكنني كنت مخطئًا في تفكيري، إنه صنف بنات حواء وهذا هو ملاذهن المبتغى.

الأصوات في تزايد وتكاد أن تقترب مني وأنا غافلٌ عن مصدرها، لا أنكر أنني خائف بعض الشيء ولكن ماذا سيحدث لي؟ هل صاحب هذا الصوت يريد أن يقبض روحي؟ أم يرد إخافتي ونزع الثقة من نفسي، وعلى أيةِ حالٍ فأنا لا يهمني لأنني لستُ بخائف، لأن قلبي غير موجود في مكانه، لقد مات منذ سنوات مثل غيره.

جاسـر .... جاسـر .... جاسـر

يا إلهي ما هذا الصوت المخيف الذي ينادي عليّ؟ ما مصدره؟ ولماذا يهتف باسمي؟ وفجأة المصباح المتدلي من سقف غرفتي فعلها مثل سابقه، ظهرت منه شرارات ضوئية متذبذبة فجعلته ينار وينطفيء، فاستمر على هذه الوتيرة لبضع ثوان إلى أن ظهرت الفاجعة أمامي، الفاجعة التي جعلت دمي يهرب من جسدي مسرعًا وكدت أموتُ فزعًا، فظهر أمامي

شبح مخيف ذو رداء أسمر وفي يده بلطة كبيرة لامعة، ينظر إليّ نظراتٍ لا أفهم مقصدها، وعلى إثر ذلك تحركت للخلف رويدًا رويدًا وعرقي يتصبب من جبيني، فلقد تملك الخوف مني وفقدت قدرتي بأكملها وأصبحت كطائرٍ انكسرا جناحاه وهو محلقٌ في سماء المدينة، نظرات عيوني تتوسل إليه بأن يتركني ويرحمني إلى أن وقعت بجسدي على المقعد الهزاز من شدة خوفي، نبضات قلبي تبدو وأنها توقفت، أما عيوني فكانت محدقة إليه عندما وجدته قادمًا يقترب مني في بطء، يقترب ويقترب إلى أن تشبث أمامي، وقام برفع ذراعيه بالبلطة لكي ينال مني.

* * * *

فحدثها مستعجبًا من أمرها:

- سيدتي ماذا أصابك؟!! هل حدث معكِ شيء؟!!

فابتلعت ريقها بصعوبة شديدة، أما عيونها فكانت محدقة خلفه والفزغ مرسومٌ على وجهها الملائكي، بينما أخوها فكان ممسكًا بها بكامل قوته وهو يرتجف خائفًا، فاحتلت الدهشة ملامحه من رد فعلهما الغامض.. ثم أردف ثانية:

- سيدتي ... ماذا حدث؟!!

يبدو أنها قد فقدت النطق من هول الصدمة، ولكنها اكتفت بتحريك إصبعها إلى الخلف أي لينظر خلفه، فنظر إليها وهو غير مدرك للحدث، ثم نظر خلفه فوجد شبحًا مخيفًا حاملًا بلطةً حديدية لامعة يقترب إليه، فتملك الرعب منه وكاد أن يسقط مغشيًا عليه إلا أن ربه ألهمه حسن التصرف، فقام بفتح باب السيارة الأمامي بسرعة البرق وتسلق داخلها.

* * * *

أغمضت عيني بكفي حتى لا أرى مشهد قتلي، ثم فتحتها بعد دقائق معدودة ونظرت أمامي فتفاجأت بأنه لا يوجد شيء، لقد اختفى هذا الشبح وعاد المصباح ينير من جديد، فلقد أصابتني الحيرة والدهشة، إلى أين ذهب؟ ولماذا عاد المصباح يعمل من جديد؟ فنهضت من مجلسي متفحصًا الغرفة وأنا أرتجف، فوقع نظري على حركة بندول الساعة المعلق على الجدار في منتصف غرفتي، إنها الساعة الثانية عشر منتصف الليل، حركات بندول الساعة لا تتوقف بل كانت تتحرك ذهابًا وإيابًا، صوته مزعج على غيرعادته، يبدو وكأن شيئًا ما سوف يحدث، فوضعت كفي على أذني حتى لا أسمع حركة البندول ثانية، تلك الحركات التي سكنت التوتر داخلي وجعلتني فزعًا، وفجأة توقفت حركته وعلى إثرها أزحت كفي عن أذني وأخذت نفسًا عميقًا ثم رجعت بنظري للخلف بعدما تملكت الرهبة مني على إثر صوت زجاج النافذة الذي أثار ضجةً كبيرةً، لقد انكسر وفتحت النافذة وبدأ الستار في التحرك بفعل تلك الرياح الشديدة. صوت الرعد زلزل أركان القصر، ونور البرق أخذ مكانه على المرآة التي توجد خلفي، وعاود صوت بندول الساعة من جديد وعاود الصوت المخيف مرة أخرى في الظهور ثم هتف باسمي:

جاسـر .... جاسـر .... جاسـر ...

فتصبب العرق مني وأنا في حالة من الهلع والرعب وأصبحت قدماي لا تحملاني، أنا أقيم في هذا القصر منذ سنوات مضت ولكن هذا الأمر جديد على مسامعي، فتحركت ناحية النافذة بعد أن جففت عرقي بكفي وأمسكت الستار كي أتحكم في غلق النافذة، ولكن أثناء محاولتي

لإغلاقها وقع نظري أرضًا على تلك الحديقة، فخرجت مني صرخة مكتومة خلعت فؤادي، إنه الشبح الذي رأيته منذ قليل واقفًا أسفل النافذة في حديقة قصري ومعه البلطة اللامعة في يده، شبحٌ منظره مخيف ووجهه ملطخ بالدماء المتناثرة التي أرهبت فؤادي، فتسمرت مكاني من شدة خوفي، ولكنَّ ضربات قلبي قد أوشكت على التوقف.

* * * *

لقد تسلق داخل السيارة وأغلقها بإحكام شديد وهو في قمة فزعه.. ثم أردف قائلًا:

– سيدتي ... أرجوكِ انهضي بجواري أنتِ وصغيرك ... الأمور بالخارج تبدو سيئة.

ولكنها كانت تبكي هي وأخوها وفي حالة من الفزع، ممسكان ببعضهما البعض وكأنهما جسدٌ واحدٌ ... فتابع حديثه قائلًا:

– من فضلكِ سيدتي انهضي بجواري ... إنه يقترب منَّا ولا بد من وجودنا سويًا.

فنهضت هي وصغيرها إلى المقعد الأمامي، فأحس بخوف الطفل الصغير وفزعه، إنه موقف لا يتحمله بشر، شبحٌ في مكانٍ مظلمٍ لا يعلمون تضاريسه، فنظر فوجد ذلك الشبح يقترب منهم في تخاذلٍ ثم أردف قائلًا:

– سيدتي رددي معي آية الكرسي وأكثري من ذكر الله.

فرددوا سويًا آية الكرسي في صوتٍ مرتجفٍ متقطع إلى أن تقدم إليهم واقترب من نافذة السيارة حتى ينال منهم... فهتف أسر صائحًا:

– إنَّ الله معنا يحمينا ويرعانا وبإذنه لا يصيبنا مكروه.

ثم قرأوا آية الكرسي ثانية في صوتٍ مرتفع ما.

– لقد اختفى.

نطقتها تلك الفتاة وهي تبكي... بينما حدثها أخوها قائلًا:

– قلت لكِ يا أختي أنَّ الله معنا.

فظهرت ابتسامة منفرجة على شفتيها ممزوجة بالدموع ثم احتضنت أخاها، بينما هو تحدث قائلًا:

– الحمد والشكر لله.. لقد اختفى.. ولكن علينا التصرف للخروج من هذا المكان اللعين الذي لا نعلمه.. لا بد من العودة إلى مسقط رأسنا.

فتركت حضن أخيها متحدثة:

– ولكن كيف لنا التصرف والعودة إلى بلادنا والسيارة لا تعمل والطقس سيء والمكان ملغم

بالأشباح.. كيف أيها السائق؟ كيف؟؟

ثم بكت بعدما تملك الضعف منها.. فحدثها قائلًا:

– سيدتي أرجوكِ كفِ عن البكاء ... بكاؤك يقتلني ويقطعني إلى أشلاء.. فلا تزيدي حزني وتحلي بالثبات.

فنظرت إليه بعيونها الدامعة، فوجدت في عيونه نظرات حانية جعلتها تطمئن بعض الشيء وكأن نظراته تبلغها بأنه معها ولن يتركها أبدًا وسيعيدها بإذن الله إلى أسرتها.

ثم تابع حديثه قائلًا:

– سيدتي لقد تعطل هاتفي ... ولكن هاتفك موجود ... الفرصة ما زالت أمامنا.

فحدثته ساخرة:

- ستتفقد السيارة مرة أخرى بعد أن رأيت الشبح بعينيك.

- لا يا سيدتي... ولكن سأحاول الاتصال بصديقٍ لي فلعله يأتِ ويساعدنا.

- حسنًا، تفضل الهاتف.

ثم أخذ الهاتف منها محاولًا الاتصال بصديقه، بينما هي تفرك في أصابعها في حالة من التوتر.

فصاح غاضبًا:

- يا إلهي!!! لا توجد إشارة.. إنه بالفعل مكان لعين.

ـ ٤ ـ

تشبثتُ في مكاني ناظرًا إليه وأنا أرتجف، ثم نظرت ثانية في تمعن، ولكن لا يوجد شيء أمامي، فلقد اختفى بسرعة البرق، لا يوجد أثر لذلك الشبح الذي رأيته منذ قليل، فرجعت خطوتين للخلف وأنا في حالة من الفزع القاتل، ثم حاولت أخذ أنفاسي المتلاحقة بهدوء ... ثم أردفت:

- ماهذا الذي رأيته؟ هل هذا شبحٌ حقًا؟ أم أنها هلاوسٌ اختُلِقت في ذهني بسبب وحدتي وعزلتي عن البشر؟ لا أعرف... حقًا لا أعرف.

ثم أمسكتُ بمقدمة رأسي، فلقد عاود الصداع إليَّ من جديد فجعلني لا أحتمل، فتحركت وجلست على المقعد الهزاز ممسكًا برأسي صارخًا:

- لا أتحمل.. ماذا يحدث لي؟ ماذا يحدث لي؟

فرفعت نظري فجأة في اتجاه باب الغرفة على إثر صريره الذي أثار الرعب داخلي لقد فُتح بابها فجأة، فنهضت من مجلسي وتحركت على إثر صرير الباب مستسلمًا وكأني مغيبٌ، فكنت أتحرك ببطء شديد متخذًا شكل الزاوية القائمة إلى أن خرجت من غرفتي وأكملتُ تحرُكي في الممر الطويل الذي يربط بين الغرف المغلقة التي توجد على يميني ويساري.

كنت أتحرك في الممر ناظرًا أمامي وفجأة ظهر أمام بصري طفلة جميلة بملامح أوروبية، كانت تمتلك شعرًا أصفرًا وعيونًا زرقاءً وفي يدها دمية تشبه ملامحها إلى حدٍ ما، كانت ترمقني بنظراتٍ لا أفهمها إلى أن سكنتُ مكاني من إثر تلك النظرات، يبدو كأني قد استيقظت من غيبوبتي التي دامت لدقائق بسيطة، أما المصباح الذي ينير الممر أصابه ما أصاب مصباح غرفتي فأصبح ينار وينطفيء، فعندما يُنار كانت تختفي تلك الطفلة، وحينما ينطفَيء كانت تظهر أمامي ثانية، فتملك الخوف مني أكثر.

ظل المصباح في حركاته بين الإنارة والانطفاء واستمرت تلك الطفلة في الظهور والاختفاء، فلقد فقدت القدرة والسيطرة على نفسي، أما صوت أنفاسي المتلاحقة فكانت تدل على أنني أحتضر، وفجأة تحركت الطفلة وتوجهت داخل غرفة من الغرف المغلقة، فتحركت من مكاني وركضت خلفها ثم فتحتُ باب الغرفة ولكني تفاجأتُ بعدم وجود الطفلة، فظهرت الدهشة على ملامحي، ثم خرجت من تلك الغرفة في حيرةٍ، ولكني وجدتها أمامي ثانيةً تنظر إليّ، ثم توجهتْ إلى الغرفة المقابلة فركضتُ خلفها وأنا عازمٌ على أن ألحقَ بها، ولكني تفاجأتُ بعدم وجودها مرة أخرى، فخرجتُ من الغرفة وأنا أتصببُ عرقًا غزيرًا وأحسست في تلك اللحظة بأن جسدي يرتخي وسوف أسقط أرضًا، ولكني حاولت التملك من نفسي عندما ظهرتْ أمامي وهي تنظرُ إليّ نظراتٍ غامضة، ولكن هذه المرة كانت تتحرك ببطء وتشير لي بإصبعها الصغير لكي ألحق بها، فتحركت الطفلة وأنا أتحرك خلفها إلى أن فتحت

غرفة من ضمن الغرف المغلقة ودلفت داخلها وأنا أتبعها في حيرة، فتحركت في اتجاه الباب الصغير الذي يوجد داخل الغرفة ثم قامت بفتحه ونظرت إليّ بأن أسير خلفها، وبالفعل تحركتُ خلفها دون مقاومة مني ودلفتُ للداخل، ولكنني وجدتها تقف مكانها في منتصف دورة المياه وتنظر إليّ نظراتٍ مليئة بالغموض المصاحب بالاستياء، وفجأة أدارت نظرها بعيدًا عني ونظرت في مرمى بصرها، فتابعتها بنظراتي التائهة، ولكن عندما نظرت مثلما أشارت إليّ بنظراتها أصابتني صدمة كبيرة كان من الممكن أن أفقد حياتي حينها، وذلك عندما وجدت أمامي بأن بانيو دورة المياه ممتلئ بالدماء بدلًا من الماء وبداخله امرأة مقتولة، ولكن عينيها مفتوحتان.. فتراجعت للخلف وأمسكت برأسي التي ازدادت ألمًا ثم نظرت ثانية إلى البانيو وإلى الطفلة.

* * * *

فحدثته وهي باكية:

– وما العمل أيها السائق؟؟

– سيدتي اهدأي من فضلك ... بكائكِ لا يقدم شيئًا ولا يأخر... إننا في مأزق والاستسلام ليس حلًا ...علينا التدبر وحسن التصرف.

فصاحت في وجهه، وقالت:

– حسنًا أيها السائق أرِني حسن تصرفك ... أخرجني من هذا المكان ... أعدني إلى مسقط رأسي.

فأردف في حزن:

- لا داعِ لسخريتك سيدتي ... فأنا مثلك متوتر وأود الرحيل والرجوع لبلدتي.

ثم سقطت دمعة حزينة من عيونه الحانية، فرق قلبها له بعدما تأثرت بحزنه، ثم أردفت:

- ماذا بك؟

فقام بتجفيف دمعته الحزينة بإصبعه حتى لا يظهرأمامها بالضعف، ثم حدثها ناكرًا:

- لا شيء.

- رجاءً لا تغضب مني ومن حديثي المزعج ... أبلغك اعتذاري.

- اطمئني سيدتي ... أنا لست غاضبًا منكِ ولا داعِ لاعتذارك ... أنا حزين على زوجتي ... لقد تركتها وحيدة، وهي مريضة لا حول لها ولا قوة وليس لها بعد الله غيري ... أنا قلق جدًا عليها.

فقالت، وهي متأثرة ومشفقة على حاله وعلى حالها أيضًا:

- اطمئن سيدي إنَّ الله معها ومعنا ... وسنخرج بإذنه من هذا المكان ونعود لديارنا من جديد.

- كل شيء سيكون على ما يرام أيها السائق.

نطقها الطفل الصغير وهو يهدأ من روعه... فنظر إليه في حنان وتحسس شعره الناعم، ثم حدثه:

- حسنًا يا صغيري ... وأنا أثق بك.

فابتسم له الطفل الصغير وعلى إثره بادله هو تلك الابتسامة ... بينما تابعت حديثها قائلة:

– سيدي ماذا علينا أن نفعل الآن؟ أنا خائفة من هذا المكان وقلقة جدًا على والدتي ... إنها
الآن في انتظاري.

– سأنتظر حتى تهدأ العاصف، وأتفقد السيارة من جديد.

فأردفتْ في حزن متمركز في كيانها:

– ولكن الشبح سيدي بالإضافة للظلام الكاحل الذي يحيط بنا.

– ليس أمامنا سوى المجازفة سيدتي ...أنتِ تريدين الرجوع إلى والدتك وأنا أود العودة من أجل زوجتي.

– حسنًا سيدي.

– ماجد ... هذا اسمي سيدتي ... لا داعِ لتفخيمي لأنني مجرد سائق ولست بطبيب.

فحدثته قائلة:

– لا تقلل من شأنك يا ماجد ...الناس سواسية كأسنان المشط ... لا فرق بين طبيب وسائق كلاهما يعمل من أجل الكسب الحلال ... مهنتك التي تقلل منها قد تكون بالنسبة لغيرك صعبة المنال.. فاحمد ربك كثيرًا وارضَ بما قسمه لك.

– الحمد والشكر لله.. أنا لا أقصد سيدتي من تحكير مهنتي ... كل مقصدي أن تناديني باسمي ليس بالأكثر.

– حسنا، سوف أناديك باسمك، ولكن بعد أن تناديني باسمي.

– ولكن سيدتي..

- لا جدال يا ماجد...من فضلك لا داعِ لندائي بسيدتي.. إننا سواسية ولا فرق بيننا.

- حسنًا، ولكن ما هو اسمك سيدتي.

- كارما.. أدعى كارما.. وهذا آسر أخي الأصغر.

- آسر.. إنه غني عن التعريف.

فحدثه في براءة الاطفال الساكنة داخله:

- يا للهول أأنا معروف لهذا الحد!

فعلى إثر برائته تلاقت عيونهما سويًا ثم أصدرا ضحكات قد محت القلق والخوف الذي تربع داخلهما.

* * * *

أحسستُ بدوار شديد من هول المنظر وبشاعته، امرأة مقتولة في بانيو قصري، فظللت أنظر إليها وأنا متوجس خوفًا، ثم أمسكت رأسي من شدة ألمها، بينما الطفلة كانت تنظر إليّ نظرات غير مفهومة، فانتفض جسمي فجأة وتصببتُ عرقًا متلاحقًا على الرغم من برودة الجو الشديدة، وفجأة نهضتْ المرأة المقتولة من البانيو وتحركتْ في اتجاهي ومعها الطفلة الصغيرة متقدمتان إليَّ، فصرختُ صرخة محشرجة ثم رجعتُ للخلف في خوفٍ شديد وهما يتبعانني إلى أن خرجتُ من الغرفة وأصبحتُ في الممر الطويل المؤدي للغرف المقابلة، فظللت أتراجع للخلف ناظرًا إليهما في رهبة شديدة إلى أن وقعت أرضًا، ثم توجهتُ بنظري خوفًا إلى الغرف الموجودة على يميني ويساري فوجدتها تُغلق وتُفتح، وأصوات الرعد في تزايدٍ، والمصابيح تُطفأ وتُنار وكأن طفلًا صغيرًا يمزح بتلك المصابيح

حتى يُشبع طفولته التي يحيا بها، بينما عاصفة الهواء لا تهدأ، بل أطاحت بكل شيءٍ موجود بالمكان فجعلته يتطاير في أنحاءٍ متفرقةٍ، ثم دققت بنظري فوجدتهما تقتربان مني، فازددت فزعًا إلى أن تراجعتُ للخلف زحفًا، نبضاتُ قلبي وأنفاسي في تلك اللحظة كانت تدل على أنه قد حان وقتي.. فحدثتهما:

- أتوسل إليكما لا تقتلانني...لا تقتلانني.

نطقتها وأنا لا زلتُ زاحفًا إلى أن صدمت بظهري في منضدة حديدية صغيرة فتشبثت في مكاني مستسلمًا لمصيري المعلوم، بينما ألقتْ الطفلة دميتها أرضًا واقتربتْ منها ثم جثت على ركبتيها بعدما أتت بحبلٍ صغير من جيب فستانها ثم عقدته حول عنق الدمية وظلت تعصد به إلى أن انتهت من خنقها وكأنها تأكدتْ أنها قد فارقت الحياة، وفجأة صرختُ صرخة قوية رنانة على إثر اختفاء الطفلة والمرأة المقتولة وظهورالشبح أمامي مرة أخرى ومعه بلطته اللامعة.

ـ ٥ ـ

فحدثته بعدما انتهت من ضحكاتها، وقالت:

– لقد هدأت العاصفة يا ماجد وأعلن المطر انسحابه ... أظن أن الوقت قد حان لنتفقد السيارة سويًا.

– بالفعل لقد حان الوقت يا كارما، ولكن سوف أتفقدها بمفردي خشيةً عليكما من ظلمات الليل وعبث الأشباح.

فأردفت:

– نحن نريد الخروج من هذا المكان ولا بد من وجودنا سويًا.

– ولكن!!!

– أعلم جيدًا أنك خائف عليَّ أنا وصغيري آسر وتود الاطمئنان علينا... ولكن وجودنا سويًا في الخارج أو الداخل هو الاطمئنان بعينه.

– لا داعِ للتردد يا ماجد.

نطقها الصغير في ابتسامة مشرقة، فبادله نفس الابتسامة قائلًا:

– حسنًا يا صغيري.

ثم فتح باب السيارة بحذرٍ شديد وترجل أرضًا يتفقد المكان بحرص، يتلفت يمينًا ويسارًا إلى أن اطمئن من عدم وجود أي أثرٍ للشبح فأشار بيده لهما، فترجلت كارما ومن خلفها أسر ممسكًا بمعطفها القصير المساوي لخصرها والرهبة متملكة منهما، ثم قام بفتح مقدمة السيارة وظل يستكشف سبب العطل بمصباح هاتف كارما، بينما هي كانت تتلفت يمينًا ويسارًا خوفًا من عودة الشبح، أما آسر فكان يردد في داخله آية الكرسي، ودقائق وقد أغلق مقدمة السيارة وتوجه إليهما بوجه عابس.. فحدثته قائلة:

- أقمت بإصلاحها؟

فتحدث في شجن:

- للأسف يا كارما.. البطارية تالفة وليس بمقدرتي إصلاحها.

فقالت في فزع:

- يا إلهي!! ... وما الحل إذن؟

- الانتظار بداخل السيارة للصباح.

- كيف؟ وزوجتك المريضة التي في انتظارك ووالدتي التي تموت قلقًا علينا... كيف يا ماجد؟؟ كيف؟؟

فتملك الضعف منها وسالت عبراتها الممزقة إلى وجنتيها ... فأردف قائلًا:

- كارما تذكري حديثي من قبل... بكاؤك لا يُقدم شيئًا ولا يُأخر ... البكاء ليس حلًا وإنما هو حال الضعفاء ... من فضلكِ كفي عن البكاء واستخدمي عقلك معي لكي نخرج من هذا المأزق بسلام.

فحدثته، وهي تلوم نفسها:

– وكيف لي أن أستخدم عقلي؟ وعقلي هو السبب في مجيئي لهذه المدينة التي لا أعلمها ... ليتني أنصت لحديث والدتي ولم أتِ إلى هذه البلدة اللعينة.

– لا يا كارما ... ليس عقلك هو الذي أتى بكِ إلى هنا وإنما هو قدرك ... مكتوب لكِ ولي أن نأتي إلى هذا المكان الذي نود مغادرته على الفور.

فحدثته متسائلة:

– ولماذا؟

– لعله اختبار من رب العباد يريد أن يمتحن صبرنا وتذكره في أضيق الأوقات ... أو لحكمة هو يعلمها.

– أختي من فضلكِ اهدأي ... ليس أمامنا غير الانتظار بالسيارة لحين قدوم الصباح.

فحدثه قائلًا:

– شكرًا لتفهُمك يا صغيري.

ثم وجّه حديثه إليها قائلًا:

– أرأيتِ صغيرك الذي تخافين عليه هو من يبث بداخلنا روح الأمل والشجاعة ... ليتكِ تتعلمين منه.

فابتسم له الصغير.... بينما تحدث هو في داخله:

– أنا مثلكما بل وأكثر أزداد رهبةً وفزعًا ... ولكن عليَّ أن أتحلى بالثبات أمامكما كي لا تضعفا ... إنني قلق ومضطرب بأمر زوجتي مثلما أنتِ يا كارما مضطربة بأمر والدتك... ولكن ليس لدينا حل غيرالانتظار

للصباح ولعلنا نُفلح في الخلاص من هذه الورطة التي وضعتنا فيها تلك الظروف.

* * * *

لا زلتُ مُلقًا أرضًا في فزعٍ شديد والشبح بردائه الأسمر واقفٌ أمامي ومعه بلطته اللامعة، فكانَ ينظر إليَّ نظرات مريبة جعلت مني طفلًا صغيرًا خائفًا لعدم وجود والدته جواره ... فحدثته متوسلًا:

– أرجوك لا تقتلني ... أتوسلُ إليك ... لم يعدْ بوسعي التحمُل أكثر من ذلك.

فتملك الضعف مني بعدما أصبح الفؤاد فارغًا، أما عيوني فكانت محدقةً وكادت تُقتلَعُ من مكانها حينما وجدت أمامي الطفلة والمرأة المقتولة بالإضافة للشبح ذو الرداء الأسمر ينظرون إليّ نظراتٍ مشوشة غير واضحة ولكنها أقرب إلى الانتقام والأخذ بالثأر، فاستسلمتُ لقضائي إلى أنْ تقدمت الطفلة نحوي، وأمسكتْ بيدي كي أقوم من مجلسي، فانتفض جسدي، ثم حدثتها:

– ماذا تريدين مني؟ أنا لم أفعل شيئًا.

فنهضت معها في استسلام وأنا غير مدركٍ لمصيري، هل سيكون الموت حقًا أم سيكون الشفاعة؟ ثم تقدمتْ بي إليهما وكأنها الأداة التي يحركونها من أجل إشباع رغباتهما التي لا أعلمها.

فلقد أصبحت أمامهم فريسة ضعيفة هشة لا حول لي ولا قوة، فانتفض جسدي بأكمله ثانية وعلى إثر ذلك تراجعتُ خطوةً واحدةً للخلف وذلك عندما شاهدت المرأة المقتولة قد انتفخت بطنها فجأة وكأنها حامل

في شهرها السابع، أحسستُ بنفسي وأنا أسقطُ أرضًا مثلما أحسستُ بيد الطفلة وهي تمسك بي حتى لا يختل توازني.. فحدثتهم في خوف:

- ماذا تريدون مني؟ أنا لم أفعل شيئًا.

فتحدث الثلاثة في نفسٍ واحد وبصوت مرعب قد أهلكني:

- أخذُك إلى عالمنا.

بعد أن تملك الرعب داخلي حدثتهم قائلًا:

- لا.. لا أريد الذهاب إلى عالمكم.. اتركوني وشأني.

فتحدثت الطفلة في ضعف:

- هذا ليس اختيارًا منك وإنما هو إجبارٌ لا نقاش فيه.

فأردفت وأنا متوجسٌ:

- ماذا؟!!

ثم سقطت دمعة من عيون الطفلة وعلى إثرها نظرتُ إليها وحدثتها قائلًا:

- أيتها الطفلة، أعلم أنكِ تبكين عليَّ .. من فضلكِ احميني منهم ... احميني منهم قبل أن يُطيحوا بي.

فحدثتني بصوتها الطفولي الناعم:

- ليس بمقدرتي حمايتك.. أنا لا زلتُ طفلةً في السابعة من عمري ... فكيف لطفلةٍ في مثل عمري حماية شخصٍ بالغٍ مثلك؟

- إذن لما تبكين؟!!

- أبكي على مصيرك المحتوم .. على نتيجة أفعالك التي اقترفتها في الماضي.

فتحدثت فازعًا:

- الماضي!!!

فأكملتْ قائلة:

- حان الآن الوقت لتجزَ بما فعلت.. حان الآن الوقت ليأخذ كل ذي حقٍ حقه ... حان الآن الوقت لتقطفَ ثمار ما زرعته بالأمس يا جاسر.

فأردفت بقلب منهك قائلًا:

- ماذا!!!

* * * *

فتوجهوا إلى السيارة وجلسوا في المقعد الأمامي بعدما خاب أملهم في تصليحها، فكان يتوسطهما آسر ناظرين أمامهم في حزن واستسلام، أما سكون الليل قد بث في داخلهم الرعب خاصة بعد انتهاء تلك العاصفة الهالكة.. فنظر لها وحدثها:

- بما تفكرين يا كارما!!!

فتنهدت ثم أجابته:

- أفكر بأمي يا ماجد ... لا أعلم ما هو حالها الآن؟ أنا قلقة عليها جدًا خاصة بعد انقطاع الاتصال بيننا قبل تعطل السيارة في هذا المكان...

فأجابها بصوت واهن:

- أعلم الآن حالها ... لأن حالها مثل حال زوجتي .. تنظران في ساعتيهما الرقمية محدقين في الباب لعلنا ندخل عليهما ونطمئنهما بمجيئنا.. هذا هو حالهم يا كارما.. وهذا هو قدرنا الذي سُوقنا من أجله.

فتابعتْ كلامها:

– ما أصعب تلك اللحظاتِ التي تمرعلينا الآن ... أصبحنا غير قادرين على أن نساعد أنفسنا وكأننا مقيدون بسلاسلٍ حديدية ... مقيدون بالظلام الدامس وسوء الأحوال الجوية ... مقيدون بتعطل السيارة وظهور شبح غامض أرهبنا جميعًا ... مقيدون بالانتظار لحين حلول الصباح علينا لعلنا ننجو بأنفسنا من هلاكنا المنتظر في هذا المكان الذي لا نعلمه.

وفجأة أدارا نظرهما له حينما تحدث وقال:

– وكيف لا تعرفين هذا المكان يا أختي وأنتِ تحدثتي مع أمي قبل تعطُل السيارة وأخبرتيها بمكاننا هذا.

فتحدث ماجد وكارما معًا في حالةٍ من الدهشة والتساؤل:

– ماذا؟؟

– مثلما سمعتما ... إننا الآن في بلدة تُدعى عمورية.

فظهرتْ الدهشة على ملامح ماجد، ثم قال:

– عمورية!!!

- ٦ -

فأردفتُ فزِعًا:

- ماذا!!

فتملك الرعب مني إلى أعلى ذروته، إنها النهاية ولا مفر، فظللتُ أنظرُ إليهم وأتوسل لهم بنظراتي الحزينة المستضعفة، وفجأة أتت امرأة يبدو عليها الهم والحزن ووقفت أمامي فأصبحت هي الجدارالعازل بيني وبينهم وكأنها أتت لتخلصني مما أنا فيه، فنظرتُ لها وأنا أبتلع ريقي ثم حدثتها في دهشة:

- أمي!!

فنظرتْ لي نظراتٍ حزينة مليئة بالضعف والحسرة ... بينما أنا تابعت كلامي قائلًا:

- أمي ... انقذيني منهم ... أنا ابنك .. ابنك يا أمي.

ولكن عبراتها الحزينة تساقطتْ من عينيها وكأنها علمتْ مصيري الحتمي الذي لا مفر منه ... ثم حدثتُها ثانيةً:

- لماذا أنتِ صامتة يا أمي؟ رجاءً منكِ انقذي ابنك جاسر ... جاسر يا أمي ... فلذة كبدك الذي يمثل لكِ معنى الحياة.

فلم تجبني، ولكن نظرتْ إليّ نظرة عميقة وكأنها نظرة الوداع الأخير، ثم ذهبتْ بالفعل من أمامي وتحركتْ في الممر بينما خوفي وقلقي ازداد داخلي، فتحدثتُ في داخلي قائلًا:

- كيف لها أن تأتي وتذهب من دون تقديم المساعدة لي؟ كيف يكون هذا ردُ فعلِ أم علمتْ بأنَّ ابنها سوف يُقتل وتنتهي حياته على الفور؟ أنا أعلم أنَّ الأم تُضحي بنفسها من أجل وليدها، ولكن لا أعلم أنَّ الأم تعلم بنهاية ابنها وتفرُ هاربة ولا تبالي لأمره ... لا ... هذه ليست أمي بالطبع ليست أمي ... ثم صرخت صرخة حزينة وهتفت عليها:

- أمي!

ثم تساقطت الدموع من عيني وكأنها فيضانات غارقة، وفجأة اختفت الطفلة ومعها الشبح والمرأة الحامل من أمامي، فأصابني بعدها الهلع والفزع ثم نظرتُ إلى أمي فوجدتها تسير أمامي في تخاذل ومعطفها يفترش أرجاء الممر.

* * * *

فظهرتْ الدهشة على ملامح ماجد ثم أردف:

- عمورية !!!

فتحدث الصغير قائلًا:

- بكل تأكيدٍ إننا في عمورية ... وهذا ما قالته كارما لأمي حينما حدثتها في الهاتف.

فتحدثت قائلة:

– ولكن ... كيف لي أن أبلغها بموقعنا هذا وأنا لا أعرف هذه البلدة من قبل؟.

– أختي ارجعي بذاكرتك لبضع من الساعات ... ولكن قبل رجوعك لذاكرتك المفقودة التي زعمتيها أود أن أسأل صديقي ماجد.

ثم أدار نظره في اتجاه ماجد، وأكمل حديثه:

– صديقي ماجد ... أنت تقول أنك سائق وماهر في القيادة ... أهذا حقًا؟

– حقًا يا آسر.

فتابع الطفل حديثه وقال:

– وكيف لسائقٍ ماهرٍ مثلك لا يعلم الطريق الذي يذهب إليه؟

– حتمًا لا بد أن أعلم الطريق الذي أقصده، ولكني جديد في هذه البلدة ... قد جئت إليها منذ أيام بسيطة وهذه أول توصيلة أقوم بها خارج المدينة وقمت بها من أجل حاجتي للمال ومن أجل توصليكما.

– لا بأس يا صديقي لقد اقتنعت بمبررك.

فخرجت منه ابتسامة صافية، ثم قال:

– حسنًا.

بينما هي فكانت شاردةً تعتصر مخها من أجل أن تتذكر، هل بالفعل قالت موقعها لوالدتها؟ أم أنها ادعاءات طفولية من قبل؟ فرجعت بذاكرتها للخلف لبضعٍ من الساعات...

كانت تنظر عبرالنافذة على المطرالذي تساقط وجعلها في حالة من التأمل، أما أخوها فكان يلعب بهاتفه، اللعبة التي اعتاد على لعبها منذ أكثر من عام، إنها لعبة بابجي التي أصبح متيمًا بها، فأفاقتْ من شرودها على رنة هاتفها، فأخذتْ الهاتف من حقيبتها، ثم فتحت المكالمة وقالت:

– الحمد لله يا أمي ... إننا عائدان في طريقنا ... لقد خرجنا منذ نصف ساعة، ولكن الطقس يبدو على غير ما يرام ... المطر في تزايد والبرق في السماء يعلن عن قدومه.

– لقد انتهيت من اللعبة بنجاح.

نطقها آسر في فرحة غامرة وكأنه حصل على كنزٍ ثمين، بينما هي تابعت كلامها مع والدتها: – إنه آسر، يبدو وأنه يلعب لعبته المفضلة ... لا أعلم موقعنا بالتحديد يا أمي ... الجو ظلام وهذه أول مرة لي في هذا المكان ... انتظري سأسأل السائق.

ثم حدثته متسائلة:

– سيدي، ما هو موقعنا الآن؟؟

– لا أعلم سيدتي.. الجو ظلام والرؤية غير واضحة بالخارج.

– عمورية.

نطقها ذلك الطفل في براءة... فنظرت له متسألة، بينما هو أكمل كلامه قائلًا:

– لقد فتحتُ باقة الإنترنت وتفحصتُ موقعنا قبل البدء في لعبتي المفضلة.GPS

فابتسمتْ له ابتسامةً صافية، ثم تابعتْ حديثها مع والدتها وقالت:

– إننا في مكانٍ يدعى عمورية ... ماذا بكِ يا أمي ... حسنًا سأبلغ السائق بأن يقود مسرعًا من هذا المكان ... أمي ... أمي ... أين ذهبتِ؟.

– لقد انقطع الاتصال.

قالتها كارما في تأففٍ، ثم أفاقتْ من غفلتها ناظرةً لصغيرها.

– أتذكرتي يا كارما!

– بالطبع تذكرت... ولكن أنت من أبلغتني بموقعنا الحالي وليس أنا.

فحدثها في براءة:

– أختي أنا أبلغتك حقًا، ولكن أنتِ التي تحدثتِ مع أمي وليس أنا.

– حسناً يا صغيري، أنا من أبلغت أمي.

ثم بدا القلق عليها وتبدلت ملامحها، وعلى إثره حدثها قائلًا:

– كارما ماذا بكِ؟؟

– لا شيء يا ماجد، ولكنني قلقة جدًا.

– قلقة بعدما علمتِ بموقعنا الحالي.

– بالطبع قلقة وقلقي ازداد أضعافًا مضعفة.

فحدثها متسائلًا:

– ولما؟!!

– أثناء حديثي مع أمي عندما أبلغتها بموقعنا صرخت صرخة مفزِعة وتوسلت إليّ بأن أغادرهذه المنطقة ثم انقطع الاتصال بيننا.. يبدو وأنها تعلم خطورة هذا المكان جيدًا.

فحدثها مرة أخرى متسائلًا:

– هل والدتك ذهبت إلى هذا الطريق من قبل؟

- لا أدري، ولكن فزعها وقلقها يدل أنها بالفعل تعرف هذا المكان.
- إذن هذا استنتاج يا كارما ... فلا داعٍ لقلقك.
- ليس استنتاجًا يا ماجد إنها حقيقة.. والدتي في بداية الأمر كانت رافضة لمجيئي لهذا المكان ولا أعلم لماذا؟ ولكني حاولت معها بشتى الطرق الممكنة بأن أذهب.. فانصاعت لطلبي، ولكنها أرسلت آسر معي كنوعٍ من الحماية.
- كارما! رفضُها لطلبك ليس لأنها تعرف المكان وإنما من أجل خوفها عليكِ من الذهاب بمفردك خارج المدينة ولهذا أرسلت معكِ صغيرك آسر.

* * * *

بينما هي فتحت باب الغرفة ثم توجهت بجوار سريره وأضأت الأباجورة الموجودة على الكوميدينو ثم أيقظته من نومه وهي في حالة قلق..
- حسن...استيقظ يا حسن!
فأفاق من نومه فزِعًا ثم تحدث:
- تحية، هل حدث شيءٌ ما؟!!
- كارما يا حسن!!!
- هل حدث شيء لكارما؟؟ من فضلكِ تحدثي ولا تثيري قلقي.
- كارما لم تأتِ من زفاف صديقتها رؤى.
- وما المقلق في هذا؟ لا بد من عودتها بعد انتهاء مراسم الزفاف.
- الساعة الآن الثانية عشر والنصف بعد منتصف الليل والأحوال الجوية غير مستقرة في الخارج.

فحدثها مبررًا:

– لعلها تعثرت في القدوم بفعل التغيرات الجوية ... اتصلي على هاتفها واعلمي منها متي ستأتي؟؟

فقالت وهي باكية:

– لن تأتِ يا حسن!!

فاعتدل من موضعه بعدما ظهر الفزعُ على ملامحه ثم تحدث:

– ماذا تقولين؟

– مثلما سمعت.. كارما لن تأتِ هي وصغيري آسر.

فأردف بوجهٍ فزِع:

– ماذا تقصدين؟؟!!

– كارما في عمورية.

– عمورية!!!

– نعم عمورية يا حسن.

فصاح في وجهها قائلًا:

– وكيف علمتِ أنها في عمورية؟ ولما ذهبت؟؟

– ذهبت لحضور زفاف صديقتها رؤى التي تقطن في بلدة قريبة من عمورية وعندما تحدثت إليها عبر الهاتف وسألتها عن موقعها...قالت لي أنها في منطقة عمورية ثم انقطع الاتصال فجأة...أنا قلقة جدًا عليها.

فحدَّثها بنبرة حادة قائلًا:

– سمحتِ لها بالذهاب هي وآسر من دون علمي والآن تقولين لي أنكِ قلقة!

ثم صاح غاضبًا وتابع حديثه:

- كيف تجرأتِ وسمحتِ لها بالذهاب؟ ألا تعرفين عمورية وما بها؟ ألا تعلمين ماذا حدث قديمًا في عمورية؟ ألا تسمعين عن اللعنة الموجودة في هذه البلدة...ألا تعلمين أن وجودهما في تلك البلدة قد يودي بحياتهما إلى الجحيم.

فقالت وهي باكية:

- أعلم يا حسن.

فأردف ساخرًا:

- حسنًا ... تعلمين ومع ذلك سمحتِ لهما بالذهاب.

فأجابته مبررة:

- إنني رفضت في بداية الأمرعندما علمت أن مكان الزفاف على مقربة من عمورية، ولكنها ألحت بطلبها مرارًا وتكرارًا ووعدتني بأنها لن تتأخر وستأتي باكرًا فما كان مني غير الاستجابة لطلبها مع أن قلبي مضطرب ويموت فزعًا.

فتعالى صوته في غضب شديد وقال:

- كفي عن الكلام يا تحية وعقابُك سوف تحصلين عليه لارتكابك هذا الفعل الشنيع في حق

أطفالنا الصغار.

- وأنا على استعدادٍ تام للعقاب، ولكن الآن نجاة كارما هي التي تُهمني.

ثم أكملت حديثها والدموع منسالة على وجنتيها:

- أتوسلُ إليك أرجع إليّ صغاري وبعد ذلك افعل بي ما تشاء.

ثم أجشت في البكاء، فرقَّ قلبُه لها ثم أخذها في أحضانه لكي يُهدّأ من روعها، وبعد ثوانٍ انسحبت من أحضانه وقالت:

- حسن.. سنذهب لعمورية من أجل صغارنا.

- ٧ -

فركضتُ خلفها كي ألحقَ بها وهي لا زالت تسير بتخاذلٍ ومعطفها يفترش أرض الممر، حاولت أن أصلَ إليها، ولكني كلما اقتربت منها تراجعت وكأن قوتي قد وهنت، وأثناء سيرها هتفتُ باسمها قائلًا:
- أمي ماذا حدث لتفري مني؟ أمي خذيني إلى عالمك.. أريد أن أكون معكِ.. أريد أن أختبأ تحت عباءتك...خذيني يا أمي ولا تتركيني هكذا في مصيبتي.

فتوقفت مكانها وأدارت نظرها إليّ، فشاهدتْ الدموع في عينيَّ والرجفة تتملك من بنياني الفاني، فكانت نظراتي في تلك اللحظة لها ما هي إلا نظرات طفل أرهقته عينه من كثرة البكاء، فسالت من عيونها دمعات حزينة قاتلة على ما وصلتُ إليه، ولكنها أدارت وجهها وأكملت في سيرها عبر الممر الطويل الذي لم ينتهي بعد، فركضتُ خلفها من جديد، ولكن ركضي كان أشبه بركض طفل في الثانية من عمره، ثم نزعتُ معطفي الأسمر حتى لا يعيقَ حركتي وألقيت به أرضًا، ثم هتفتُ عليها مجددًا، وأثناء ركضي خلفها ارتسمت الدهشة والفزع على ملامحي البائسة

ثم تشبثت في مكاني، وذلك حينما وجدت الطفلة ذات الملامح الأوروبية تسير بمحاذاتها، فلقد كانت ممسكةً بكفيها وكأنهما من دم واحد، فأحسستُ بدوار عنيف يداهم عقلي ثم تسارعت أنفاسي المتلاحقة بجنون، واحتلت صور الماضي المشوشة ذاكرتي، فحاولتُ أن أستند بنفسي، ولكن عضلاتي قد ارتخت وتبددت طاقتها، فلم أستطع أن أحافظَ على توازني فخرَّ جسدي هامدًا على الأرضِ بلا حراك.

* * * *

فاكتفت بالصمت، ولكن رأسها كانت على وشك الانفجار من كثرة التفكير، أصبحتْ عاجزة عن فعل أي شيءٍ لخروجها من هذا المكان اللعين، أفكار وهواجس مريبة تحتلُ ذاكرتها، قلبُها يرتجف رهبة وقلقًا، أما عيونها فكانت ساهرةً تنتظر مرور الوقت كي يمضي، فقطع صمتَها قائلًا:

– كفي عن التفكير يا كارما.. تفكيرُك الزائد قد يترك آثارًا سلبية على ذاكرتك.. ساعات قليلة ويحل علينا الصباح وسنخرج بإذن الله ونرجع ديارنا ونحيا بحياتنا من جديد وكأن شيئًا لم يكن.

فنظرت له وتأملت ملامحه، ثم حدثته بضعف:

– لا أظن يا ماجد أننا سنخرج من هذا المكان...قدرُنا قد ساقنا لهذا المكان؛ لأنه نهايتنا المنتظرة.. وكأننا ارتكبنا ذنوبًا عظيمةً وحان الوقت الآن لنكفر عنها.

ثم وجهت نظرها للأمام ثانية.. بينما هو تابع حديثه قائلًا:

– كارما.. رجاءً لا تتركي فرصة للشيطان أن يتملك منكِ...إياكِ واليأس.

فنظرت إليه من جديد وقالت:

– تحاول أن تزرع بداخلي الثبات والأمان وأنت من داخلك تموت رهبة أكثر مني.

– حقًا أنا من داخلي قلق جدًا وأموت رهبة مثلما تحدثتِ، ولكن رب العباد موجود وهو أدرى بحالنا.. وإن كُتب لنا النجاة فأكون له شاكرًا حامدًا...أما لو كتب لنا النهاية مثلما ذكرتِ فأكون في قمة سعادتي لأنني أذكره بكل جوارحي حتى أن ألقاه.

– أتمنى أن أكون مثلك يا ماجد ولكن ليس بمقدرتي.. رجاءً منك أن تعذرني.

– لا بأس يا كارما.

وبعد أن ابتسم لها ابتسامة صافية أسند برأسه على مقدمة الكرسي وأغمض عينيه مفكرًا في أمر زوجته، أما هي لا زالت ناظرة أمامها عبر زجاج السيارة وعقلها لا يكف عن التفكير وبعد دقائق معدودة قد خرجت منها صرخة أفزعت ماجد وأفاقته من شروده ... فحدثها قائلًا:

– ماذا حدث؟؟!!

أما صغيرها فاستيقظ من نومه فزِعًا وحدثها بعدما فرك عينيه بكفه:

– أختي ماذا حدث؟!!

فقالت لهما في لهفة:

– انظرا أمامكما.. لقد وجدنا طوق النجاة الذي سيخرجنا من ورطتنا هذه.

فنظرا لها في استعجاب ثم نظرا أمامهما بمرمى البصر.

* * * *

فتحت عيني رويدًا رويدًا بعد أن خرَّ جسدي مغشيًا عليَّ، فوجدتُ أمامي امرأةً يبدو عليها علامات الزمن، حيثُ تجاعيد البشرة، والشعرالأبيض غير المنظم الذي يدلُ على عمرها الذي بلغ أرزله، فارتجفتُ من هيئتها، ثم حاولت أن أعتدل من وضعي، ثم دققت في ملامحها فتفاجأتُ بأنها هي، هي التي حاولت إفاقتي بعد أن خرَّ جسدي على الأرض هامدًا، يبدو أنها تحمل لي ذكرى طيبة فلهذا أتت إليَّ.. فحدثتها بصوت مرتجف:

- أنتِ!! ولكن كيف أتيتِ إلى هنا؟

فظلتْ تتأملُ ملامحي بنظرات عيونها الملئية بالحسرة والشفقة دون أن تجاوبني، فحدثتها ثانية متسائلًا:

- لماذا أتيتِ؟ هل جئتِ لتخلصيني مما أنا فيه؟ أم جئتِ لسبب آخر لا أعلمه؟

ولكنها لم تجبني مطلقًا، بل ظلت متأملة لملامحي التي غابت في تلك الليلة... فتابعتُ كلامي مجددًا لعلها تجيبني :

- لماذا لا تتحدثين؟ من فضلكِ حدثيني مثلما أحدثُك كي أتأكد بأنني لستُ في غفوة.

ولكنها ظلت تنظر إليّ في وهن، ثم تحسست وجهي بكفها الذي انتفخت عروقه، وفجأة تراجعت خطوة واحدة عنها وذلك نتيجة ما شاهدته أمامي، لقد وجدت عيونها تنزف دمًا وكأنها أمطار غزيرة تسري في طريقها المعلوم.. فتحدثتُ وأنا فَزِع:

- يا إلهي.. ماذا حدث؟!!

أما هي فما زالت تتأمل في ملامحي ولا تبالي للدماء المتناثرة من عيونها، فحدثتها قائلًا:

- انظري لنفسك...عيونك تنزف دماءً غزيرة وكأنكِ تبكين على شيء عصيب مررتِ به في حياتك.

ثم رمقتني نظرة تأملية غير مفهومة دون أن تبالي لحديثي أو لوضعي الحالي، وفجأة نهضت من موضعها وتحركت في الممر مثلما تحركت والدتي منذ قليل، فتعالتْ صيحاتي ثم حدثتها:

- ستذهبين مثلما فعلت أمي من قبل!! لهذا الحد لا يُبالي أحد لأمري وكأنني فيرس لا يجب الاقتراب منه.. فلماذا أتيتم؟

ثم أكملت صراخي متسائلًا:

- لماذا أتيتم؟ وأنتم لا تريدون حياتي!

لا زالت تتحرك في تخاذل في نفس الممر وفي نفس الاتجاه دون مبالاة لأمري، فنهضت من مكاني وحاولت أن أتبعها، ولكني وجدتها تفتح باب غرفة في منتصف الممر ثم دلفتْ داخلها، فحدقت بنظري في اتجاه الممر فوجدت أمي تسير مع الطفلة آنذاك، فوقفت في مكاني إلى أن أطلقت صرخة زلزت أرجاء القصر فأحسست بعدها بأن ضلوعي قد انكسرت من إثرها.

* * * *

فتح باب سيارته الأمامي ثم ركب وأدار السيارة لحين قدومها، وعندما أتت تحية مسرعة وركبت بجواره انطلقا إلى تلك البلدة التي تدعى عمورية، ذلك المكان الذي يحمل اللعنة داخله لكثرة الحوادث التي

حدثت فيه في سابق السنوات، ذلك المكان الذي شهِد ذكريات مريرة تركت آثارًا سيئة في نفوسهما، لقد ردما على هذه الذكريات ليحيا بحياتهما من أجل كارما وآسر، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فلقد أتت كارما لتفتح بنفسها سجلات الماضي المبعثرة وكأن القدر يريد فتح تلك الملفات القديمة من أجل معرفة ما حدث في تلك البلدة.

ظلت تتطلع في ساعتها بين الفينة والأخرى وكأنها تسابق الزمن من أجل اللحاق بهما.

* * * *

فتوجها بنظرهما إلى الأمام كي يفهما مقصدها، ولكن لا يوجد شيء أمامهما غير الظلام الدامس وسكون الليل بعد أن هدأت العاصفة...ف حدثها الصغير قائلًا:

- أختي، لا يوجد شيء أمامنا.

بينما أردف هو الآخر قائلًا:

- لا يوجد شيء يا كارما...ماذا حدث لكِ؟ قولت لكِ كفي عن التفكير حتى لا تفسد ذاكرتك.

- يا ماجد انظر بتمعن أنت وآسر ... يوجد أمامنا بقعة ضوئية على بعد أمتار.

فنظرا أمامهما مثلما قالت فوجدا بالفعل بقعة ضوئية في أقصى مرمى البصر...فحدثها متسائلًا:

- لا أفهم ماذا تريدين؟

فأجابته قائلة:

– ماجد...هذه البقعة الضوئية تدل على وجود أحد غيرنا في هذا المكان.
فحدثها أخوها متسائلًا:
– أختي...هل تقصدين أننا بإمكاننا الذهاب إلى ذلك المكان من أجل طلب المساعدة؟
– بالطبع...هذا هو مقصدي.
– كارما هذا الضوء ليس دليلًا كافيًا على وجود أحد غيرنا في هذا المكان...يكاد أن يكون مصباحًا كهربيًا ينير هذه المنطقة ليس بالأكثر.
– احتمال وارد يا ماجد ولكن لماذا يضعون مصباحًا كهربيًا في هذا المكان؟ إلا لو أن في هذه المنطقة سكان يقطنون.
فاحتل حديثها تفكيره لثوانٍ، فتابعت كلامها قائلة:
– لا داعِ للتفكير يا ماجد الفرصة لا زالت أمامنا...هيا نذهب ونتفحص المكان.
– كارما الأمر ليس بالهين مثلما تعتقدين...المكان يبدو من ملامحه المخيفة أنه لا يسكن فيه أحد من البشر فأنتِ رأيتِ بعينيكِ الشبح الذي داهمنا منذ وقت قليل...هذا المكان ليس مكانًا للبشر وإنما هو مكان للأشباح فقط.
– هذا هو اعتقادك الشخصي يا ماجد، ولكن اعتقادي أنا هو أن تلك البقعة الضوئية هي رمز للحياة في هذه المنطقة...فلا بد من ذهابنا وتفقدها أينما كانت.
فنظر إليها بعقلٍ مشتت وفكر ضائع، لا يعلم هل يذهب ويتفقد تلك البقعة معها؟ أم يظل مكانه حتى قدوم الصباح؟

- ٨ -

وبعد تفكير دام لدقائق معدودة حدثها قائلًا:

- كارما...رجاءً منكِ وليس أمرًا دعينا ننتظر حتى حلول الصباح.

- ولماذا ننتظر يا ماجد والفرصة موجودة أمامنا؟

فأردف وقال:

- قلبي مضطرب!!

- قلبك مضطرب من رؤية طوق النجاة لنا وغير مضطرب من هلاكنا.. إنك لمتناقض يا ماجد.

- لست متناقضًا يا كارما، ولكنني لا أريد المجازفة.

فتحدثت ساخرة:

- مجازفة.. حقًا ترى ذهابنا لتلك البقعة الضوئية مجازفة ولا ترى وجودنا في هذا المكان الملعون مجازفة.. ماذا حدث لعقلك يا ماجد؟ هل ظهورالشبح قد ترك أثرًا على عقلك فجعله غير قادر على العمل؟

فرد عليها في شجن:

– لا داعِ للسخرية يا كارما وإن كنتِ تودين الذهاب فلتتفضلي...أنا لن أمنعك من اغتنام تلك الفرصة للحصول على طوق النجاة التي تزعمينه.
فرمقته بنظرات غاضبة، ثم تحدثت:
– حسنًا، يا ماجد سوف أغتنم الفرصة وسأصل لتلك البقعة وسأخرج من هذا المكان...أما أنت فابقَ مكانك في هذا المكان الملعون حتى قدوم الصباح.
فأمسك ذراعها ونظر إليها في حزن، ثم تحدث:
– كارما، من فضلكِ اهدئي.
فنظرت إليه نظرات غاضبة فترك ذراعها على إثرها، بينما هي أكملت حديثها:
– لقد انتهى الكلام بيننا يا ماجد...أنت اخترت الطريق الذي ستسلكه وأنا كذلك اخترت طريقي من دونك.
– كارما، اهدئي من فضلكِ.
فحدثته بوجه عابس وبنبرة تهكمية:
– انتهى الحديث يا ماجد.
ثم فتحت باب السيارة وترجلت منها ثم نظرت لأخيها وقالت في غضب:
– ماذا بك يا آسر ألن تأتي معي؟
فنظر إلى ماجد في حزن وكأنه يبلغه بأنه يتمنى أن يظل معه، ولكن ليس لديه فرصة الاختيار، لا بد من وجوده مع شقيقته حتى لو رغمًا عنه، إنها الأخوة ولا بد من وجودهما سويًا في السراء والضراء...فحدثه قائلًا:

- ماجد أبلغك أسفي.. كنت أود الانتظار معك ولكن لا بد من ذهابي مع كارما.

فربت على كتفه قائلًا:

- لا بأس يا صديقي إنني متفهم جدًا لوضعك.

ثم نظر لماجد بعيون باكية، وقال:

- إلى اللقاء يا ماجد.

ثم ترجل من السيارة وأغلق بابها، ولكنه ظل ينظر إليه بتلك العيون الصغيرة الدامعة، وكأن ماجد يمثل له الكثير والكثير مع أن معرفتهما ببعضهما لا تتعدى سوى سويعات بسيطة، ثم غادر مع أخته في طريقها المزعوم.

بينما ماجد ظل ينظر إليهما بعدما غادرا، وهو حزين من داخله حتى أن اختفيا عن مرمى بصره بفعل الظلام الدامس، وفجأة أطاح بيده غاضبًا على عجلة القياده ثم لامَ نفسه وقال:

- تبًا لك يا ماجد.

* * * *

صرختي زلزلت أرجاء القصر، إنها صرخة خارجة من أعماق قلبي، صرخة ناتجة عن التشتت العقلي والذهني الذي أواجه، أشاهد أناس أمامي ثم يختفون، ثم يظهرون ويعاودون الاختفاء ولا أعلم ما أشاهده حقيقة أم أنها هلاوس بصرية وسمعية اختُلِقت في عقلي الباطن نتيجة عزلتي عن البشر واكتفائي بوجودي في هذا المكان الذي يبدو من ملامحه وكأنه سكن للأشباح تقطن فيه وتحيا حياتها رغدًا!! صراع داخلي يتملك

مني فجعلني شخصًا غير سوي يريد أن يفعل الشيء وبالمقابل يفعل نقيضه.

كنت أحيا بطفولة مشرقة عنوانها الحب والسعادة من جميع الأشخاص الذين عاصرتهم في هذا القصر وبالأخص هي، إلى أن تبدلت بي الأحوال وتحولت طفولتي البريئة إلى الشيخوخة الهشة التي في انتظارها إلى الراحة الأبدية.

كان لا يخطر على بالي بأنني سأصل إلى هذا القدر من الانحراف الأخلاقي والسلوكي الذي كان بسبب أحداثٍ شاهدتها وسمعتها في هذا القصر، ولكن انحرافي وفقدي للبصيرة أصبح أمرًا واقعًا ومسلمًا به...أي لا يفيد بكائي على ذلك اللبن المسكوب.

نظراتي كانت مشتتة بين دخولها لتلك الغرفة وبين سير أمي مع هذه الطفلة...ماذا أفعل؟ هل أذهب لأتفقد تلك البائسة بالغرفة أم أتجه خلف أمي؟ قلبي يحدثني بأن أذهب خلف والدتي، بينما عقلي يخاطبني قائلًا:

- كيف لك أن تذهب خلفها وهي كانت معك منذ قليل...تركتك وحيدًا في انتكاستك دون أن ينفطر قلبها عليك وكأنها محت من داخلها كل المشاعر الطيبة التي من الصعب محوها تجاهك؟ كيف لك أن تفكر بها وهي من تنازلت عن بنوتك من أجل شيء فعلته في حياتها؟ امحو لها أي ذكرى في داخلك مثلما فعلت هي ذلك...واركض خلف المرأة المسكينة التي بدت عليها علامات الوهن بسبب عوامل التعرية التي أصابتها وأصابتك...إنكما تحتاجان لبعضكما البعض.. إنكما غطاءان لبعضكما ومن الصعب الكشف عنه ليفتضح أمركما...اذهب إليها واخرجا من هذا القصر الذي أطفئ زهرة شبابكما وحولكما الى أشباه بشر.

فانصعت لحديث عقلي بعدما طغى على حديث قلبي المنهك، فتوجهت إلى تلك الغرفة كي ألحق بها، وعندما فتحت باب الغرفة وألقيت نظرة تأملية داخلها، ظهرت على ملامحي دهشة ممزوجة بالفزع جعلتني أبتلع ريقي بصعوبة شديدة.

* * * *

أما هما فكانا يسيران في ظلمات الليل الساكنة، مرتجفين، فزعين، ملتفتين حولهما خوفًا من ظهور الشبح مرة أخرى، أجسامهما ملتصقة ببعضهما البعض وكأنهما شخصٌ واحد، يقدمان قدمًا ويأخران الأخرى من شدة رعبهما، يبدو من بصيص الضوء الذي يخرج من هاتف آسر أنه طريق لا تبدو ملامحه طبيعية مثل أي طريق نسلكه، إنه طريق يأخذ شكل المثلث المقلوب، رأسه هي نقطة تمركزهما وبداية سيرهما، أما قاعدته فهي وصولهما لتلك البقعة الضوئية ولكن قبل الوصول لقاعدة المثلث لا بد من اختيارهما أحد الأضلاع للوصول لهدفهما المرجو، إنهما طريقان فرعيان ممتدان من أصل رأس المثلث المقلوب ولكن بعد مرورهما من رأس المثلث لمسافة تقدر بالألف متر.

فتملك الخوف داخلها من هذا الطريق الذي لا تعرف فحواه فتمنت في تلك اللحظة التراجع والعودة إلى ماجد، ولكن كيف تفعل ذلك؟ وهي من دخلت معه في صراع وتحدي أدى إلى تخليها عنه مع أنها في أشد الحاجة إليه؛ ولذلك لا يمكنها الرجوع له مطلقًا، كيف ستكون هيئتها أمامه؟ بالطبع مظهرها من وجهة نظرها سوف يضعف وثقتها المزعومة في نفسها سوف تنهار مع أنها تموت خوفًا، ولكن كبريائها كأنثى سيمنعها

من الاستسلام والتراجع ولا بد من مواصلة سيرها والفوز بالتحدي مهما كانت المشقة التي تعانيها.

فواصلا السير على وتيرتهما، خوف وقلق ورهبة تجتاح كيانهما وبنيانهما، فكان صغيرها ينير الطريق حقًا بهاتفه، ولكنه يرتجف رهبة، فكان على يمين الطريق ويساره أشجار كثيفة يبدو عليها علامات الزمن الغابرة، يبدو وكأنها موجودة منذ قرون مضت،هيئتها توحي وكأنها أشباح مختلفة الملامح والبنيان، فلو شاهدها أناس غيرهما دون معرفتهم بهويتها لماتوا فزعًا ورعبًا.

فتحدث آسر في خوف:

- أختي، إنني خائف...المكان مظلم جدًا.

فحاولت أن تتصنع الشجاعة والقوة ثم حدثته:

- لا تخف يا صغيري...كارما معك ولن يحدث لنا سوء.

- أختي أظن أنك كنتِ مخطئة في قرارك الذي أغضب ماجد والذي هو سبب هلاكنا الآن.

- قراري ليس بخاطئ يا آسر...هذه البقعة الضوئية هي طريق الأمل أمامنا ولا بد من الوصول إليها مهما كانت العواقب.

- أختي، هيا بنا نرجع إلى ماجد وننتظر سويًا قدوم الصباح.. هذا هو الأمل الذي نحيا من أجله وليست تلك البقعة الضوئية التي لا نعرف هويتها حتى الآن.

فنظرت له ثم أردفت:

- آسر...أنا لن أتراجع عن قراري مطلقًا ولن أرجع إلى هذا السائق من جديد...يكفي أنه تخلى عنا وتركنا نغادر لحالنا.

- كارما...رجاءً لا تضعي اللوم على ماجد...أنتِ من صممتِ على استكشاف هذا الضوء وليس هو.

- حقًا أنا التي صممت وغادرت سيارته، ولكنني ظننت أنه سيتنحى عن قراره ويأتي خلفي.

ثم أكملت في حزن:

- ولكني كنت مخطئة في تفكيري هذا.

- أختي الفرصة لا زالت أمامنا...هيا نرجع إلى السيارة وننتظر حلول الصباح.

فحدثته في تحدي وقالت:

- لن أرجع يا آسر مهما كانت العواقب والنتائج...وإن كنت تريد الرجوع لهذا السائق فلتتفضل أنا لن أمنعك.

- وكيف يمكنني الرجوع بدونك يا كارما؟ أنسيتِ أنني أخوكِ ووجودنا سويًا هو طوق النجاة بعينه.

- حسنًا... فلنواصل سيرنا.

فواصلا سيرهما بين الأشجار المرعبة التي ترتطم فروعها ووريقاتها في أجسامها الهزيلة، ومع كل خطوة كانت تخطوها تلك الفتاة تلتفت خلفها وكأن الشبح يأتي إليها من الخلف، أما أنفاسها المتلاحقة فكانت تقطع سكون الليل، بينما آية الكرسي هي حصن الأمان لهما في هذا الطريق المفقود، كان يرددها آسر باستمرار حتى لا تستقر الرهبة بداخله، وفجأة خرجت منها صرخة مدوية صدى صوتها يكاد أنه أسمع البلاد المجاورة وعلى إثرها سقط الهاتف من يد آسر.

- ٩ -

ظللتُ واقفًا أمام باب الغرفة في حالة من الدهشة الممزوجة بالفزع، لقد وجدته أمامي مرة أخرى، إنه الشبح ذو الرداء الأسمر الملطخ بالدماء ممسكًا ببلطته التي لم تفارقه قط ينظر إليّ نظرات غاضبة ثائرة، بينما من خلفه على سورالشرفة تقف المرأة العجوز ذو الشعر الأبيض تفرد ذراعيها وناظرة للسماء، يبدو وكأنها تحاول أن تلقي بنفسها، فانتفض جسمي وارتخت أعصابي من جديد من هول ذلك المنظر، فحاولت أن أخطو من أجل إنقاذها، ولكن قدمي قد تشبثت مكانها فأصبحت غير قادر على الحركة وكأنه أصابني الشلل، فحاولت أن أصرخ لعلي أجد من يساعدني ويلحق بي، ولكن صوتي اختفى.. وكأن أحبالي الصوتية قد تمزقت، فاكتفيت بتحريك يدي وكأني أحاول إقناعها بتخليها عن فكرتها التي أقدمت عليها وإقناعه هو أيضًا كي يعفوَ عني، فتصبب العرق مني وكأنه شلالات متدفقة ثم أمسكت برأسي من جديد، لقد عاود الألم ولم يعدني التحمل، فظللت ممسكًا برأسي ضاغطًا عليها وكأنها طريقة علاج مبتكرة، ثم أزحت يدي من على رأسي بعد لحظات، وفجأة نظرت أمامي

بعيون محدقة كادت أن تقتلع من مكانها، لا يوجد أثر لما رأيته، لقد اختفى الشبح وتلك المرأة وكأن ما رأيته ذهب هباءً أو أنه غير موجود بالفعل.

* * * *

بعد أن حاول لملمة ما تبقى من طفولته المبعثرة حدثها بصوت متقطع:

- أختي ماذا حدث؟

فتراجعت خطوات للخلف في فزع، جسمها ينتفض كليًا ودموعها تتساقط ذاهبة إلى طريقها التي اعتادت عليه في تلك الليلة التي لا تبدو لها ملامح أو عنوان ثم نطقت في صراخ:

- شبح...شبح...شبح.

فارتجف جسده الطفولي وتملكت الرهبة منه ثم أخذ أنفاسه وابتلع ريقه، ثم تحدث:

- أختي، اهدأي من فضلك.

- شبح يا آسر...شبح.

ثم عاودت صراخها وكأن صراخها هو الأداة التي تساعدها على اجتياز هذا الموقف العصيب.

- أختي، لا يوجد شيء...من فضلكِ اهدأي.

- شبح يا آسر، لقد خطوت عليه وأحسست به.

- أختي، يكاد أنكِ مخطئة أو يتهيأ لكِ ذلك.

- لا...لا يا آسر، الشبح موجود وخطوت عليه بالفعل.

- حسنًا، اهدأي من فضلك ودعيني أستكشف ذلك.

فجثى أرضًا وأخذ هاتفه الساقط على الأرض ثم تحرك بعض الخطوات في حذر شديد يتمتم آيات من القرآن الكريم، ثم تفحص الشيء التي خطت عليه واعتقدت أنه شبح يريد أن ينال منها، فتفحصه جيدًا مع أن حالته يرثى لها يكاد كلامها صحيح وأنه شبح أراد العبث معها...ثم تقدم إليها وحدثها:

- أختي صراخك الذي أرهقتِ به أحبالك الصوتية قد ذهب هباءً...الشيء الذي خطوتِ عليه ليس شبحًا وإنما هو طائر.

فاحتلت الدهشة ملامحها ثم تحدثت:

- ماذا؟...طائر!!!

- نعم طائر ويبدو من هيئته أنه غراب توفي منذ فترة بسيطة ولم يتحلل بعد.

فأخذت أنفاسها وابتعلت ريقها ثم حمدت ربها، بينما هو أمسك بكفها كي يطمئنها ثم حدثها:

- هيا يا أختي كي نواصل سيرنا.

- حسنًا يا آسر...هيا بنا.

* * * *

تحركت داخل الغرفة وكأني ثورهائج، لقد فقدت أعصابي ولم يعدني التحمل، فظللت أبحث عنهم على أمل وجودهم، لقد بعثرت محتويات الغرفة بأكملها وجعلتها فوق بعضها البعض وكأن زلزالًا قد أتى بها ودمرها تدميرًا، ثم صحت بأعلى صوتي مناديًا عليهم:

- أين أنتم؟ لماذا تفعلون هذا معي؟ أجيبوني لماذا تفعلون هذا بي؟ أتريدون إخافتي ونزع العقل مني؟ أم تريدون خروجي من هذا القصر؟ لا بد من علمكم أنني لن أخرج من هذا القصر إلا لو أصبحت جثة هامدة دون روح.. أنا لا أخاف ولو نسيتم ما حدث في الماضي أنا لم أنسَ...لم أنسَ...أنا لن أستسلم أبدًا...صمودي وقوتي هو رأس مالي وأنا لن أفقد رأس مالي في تلك الحياة...أتسمعون! لن أخسر رأس مالي ولن أخسرعقلي مطلقًا...اذهبوا مثلما أتيتم...اذهبوا عليكم اللعنة جميعًا إلى يوم الدين...عليكم اللعنة إلى يوم الدين.

فظللتُ أكررها مرارًا وتكرارًا إلى أن ضعف صوتي وجسدي فألقيت بنفسي فوق محتويات الغرفة المبعثرة لآخذ أنفاسي، فظهرت أمامي صورة ضبابية لأن عيني قد كساها التعب وعلى إثرها ظهرت على شفاهي ابتسامة بائسة.

* * * *

بينما هما واصلا المسيرة على نفس الوتيرة السابقة، آسر ممسك بالهاتف ينيرالطريق، أما هي فكانت ملتصقة به متلفتة حولها في جميع الاتجاهات، وفجأة تبدل الحال وعاد الطقس السيء من جديد، فلقد أعلنت العاصفة عن قدومها ثانية وكأنها تريد عمل انتعاش لليلتهم هذه، بينما الأمطار هلت عليهما مثلها مثل الضيف الذي يأتي دون استئذان، فلقد ضعفت قواها بفعل الأمطار التي غطت جسدها الهزيل فجعلته يرتجف من أثر البرودة، فتحول جسدها من جسد أنثى إلى جسد طفلة منكمشة في نفسها

تبحث عن التدفئة والاختباء، أما خصلات شعرها فلقد تحولت إلى شعيرات ملتوية خلال ثوانٍ بسيطة، فصاحت في فزع قائلة:

– يا إلهي...لقد عاودت العاصفة من جديد.

فحدثها بصوت باكي:

– أختي، ماذا سنفعل الآن؟

– لا أعلم يا آسر...حقًا لا أعلم.

– أختي ما وصلنا إليه الآن هو نتيجة قرارك الخاطئ...اندفاعك وتسرعك هو ما جاء بنا إلى هذه البلدة الغامضة...ليتكِ انصتِ لحديث والدتك وما ذهبتِ إلى عرس رؤى ما كان حدث لنا ما حدث. فأحست من كلامه بالخجل؛ لأنها بالفعل هي السبب الرئيسي فيما حدث، لولا ذهابها لهذا العرس ما عانت هذه المعاناة ولولا تسرعها في قرارها الذي أغضب ماجد وآسر ما عانت الآن من سقوط الأمطار واندلاع العاصفة الرعدية التي بأثرها جعلت أجسادهما وكأنها فقدت مهامها، فحاولت أن تختار من الكلمات أنسبها كي تهدأ من غضبه، وقالت:

– صغيري آسر أنت محق في حديثك...لولا إصراري لحضور مراسم العرس ما كان حدث لنا ما حدث ولولا إصراري للوصول إلى هذا الضوء ما كنا عانينا من ظلمات الليل وهول المطر...ولكن يا صغيري أنت تعلم أن رؤى تمثل لي الكثير...إنها صديقتي المقربة ولا بد من مشاركتها في لحظات فرحها ولحظات حزنها...هذه هي واجبات الصداقة مهما كانت العواقب والنتائج.

ثم تابعت كلامها وقالت:

– أعلم أنني دخلت في تحدي مع السائق، ولكن لأنني أريد الخروج من هذا المكان والعودة بك إلى مسقط رأسنا حتى يطمئن فؤادي وفؤاد أبائنا الذين يموتان قلقًا علينا...صغيري آسر تذكر قول الله في كتابه العزيز "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون" بمعنى أن ما حدث لنا مقدر ومكتوب ولا يوجد شخص على هذا الكون يستطيع الهروب من نصيبه المكتوب.

فكان ينصت لها وكأن كلامها طمئنه بعض الشيء، حقا إنه يعلم أن ما حدث هو من تدابير رب الكون، ولكن اندفاعه لإلقاء اللوم عليها هو نتيجة الظروف السيئة التي جعلتهما فريسة لظلمات الليل العابسة التي أرهقتهما ذهنيًا وبدنيًا، كان ذلك الطفل يعترف في داخله أنه مخطيء ولا يحق له أن يتحدث بهذه اللهجة مع أخته التي تكبره بأعوام، ولكن هذا رد فعل طبيعي لما يشعر به؛ لأنه عانى معاناة لا تليق بطفل في مثل عمره...ثم أردف في حزن:

– كارما، أنا آسف جدًا...من فضلك لا تغضبي من حديثي البالي...أنتِ تعلمين أنني أحبك حبًا جمًا وتعلمين أنني على استطاعة كاملة لتحمل الأهوال والمتاعب بدلًا منكِ؛ لأنكِ تمثلين لي الكثير والكثير...حقًا أنا مخطيء جدًا؛ ولهذا أبلغك اعتذاري ثانية ورجاءً منكِ أن تتقبليه.

فخرجت منها ابتسامة صافية مع أن حالتها يرثى لها، ولكنها سعيدة بحديثه الذي أعطاها الحماس وزرع في كيانها طاقة إيجابية...فأردفت قائلة:

- لا بأس يا صغيري...كارما لا يمكنها الغضب منك أبدًا؛ لأنك تمثل لها الأكسجين الذي تحيا بأثره.

ثم فتحت ذراعيها له تحت تأثير المطر الذي لم يكف عن اندلاعه، فارتمى في أحضانها وكأنهما وجدا الدفء والاختباء الذين يبحثان عنهما في مثل هذا الطقس، بل نسيا المخاوف التي سكنت فؤادهما منذ قدومهما لهذا المكان الغامض، وبعد لحظات انسحب ذلك الصغير من أحضانها قائلًا:

- أختي ماذا سنفعل الآن؟؟

فحدثته بوجه حزين وقالت:

- لا أعلم يا آسر هل يمكننا إكمال مسيرتنا في هذا الطقس؟ أم نعاود لماجد من جديد؟

- ولكن يا أختي لا يمكننا الوصول لهدفنا أو الرجوع لماجد...الطقس لا يساعدنا على السير مطلقًا وأصبحنا مقيدين في مكاننا هذا.

- لا تقلق يا صغيري وتذكر قول الله تعالى "لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا"

- صدق الله العظيم...قالها آسر وارتاح بعض الشيء.

ثم بعد لحظات صاح بأعلى صوته ويبدو على ملامحه الطفولية الفرحة التي اختفت منه منذ أن أتى معها...ثم وجه حديثه إليها قائلًا:

- أختي انظري أمامك...لقد حدث ذلك الأمر الذي تحدث عنه رب العباد في قرآنه الكريم.

فنظرت إليه والدهشة مرسومة على ملامحها ثم رمقت بنظرها في اتجاه إشارة إصبع سبابته وهي غير مستوعبة لمقصده.

- ١٠ -

ثم حدثته قائلة:

- على ماذا ننظر يا آسر؟

- أختي، انظري بدقة...يوجد أمامنا مكان نختبأ به لحين انتهاء الأمطار والسير مجددًا للبقعة الضوئية.

فدققت بنظرها فوجدت أمامها مبنًا مكونًا من دور أرضي، عبارة عن منزل قديم مبني بواسطة الطين وسقفه مغطى بالجريد وقش الأرز، يبدو من ملامحه أنه كان منزلًا لعائلة تقطن فيه في فترة زمنيه مضت... فنظر إليها ثم حدثها:

- أختي لا مجال للتفكير...هذا المنزل هو خلاصنا من هذا الطقس المخيف...دعينا نذهب إليه كي نختبأ حتى تهدأ العاصفة ونعاود سيرنا.

فأردفت في قلق:

- ولكن يا آسرهذا المنزل يبدو من ملامحه أنه لا يوجد به أحد...هيئته تدل بأن أهله قد تركوه منذ سنوات عديدة، ومن الممكن أن يكون مستوطنًا للأشباح.

- أختي، أخرجي هذه الهواجس من عقلك...دعينا نذهب إليه.
فظهرت الحيرة على ملامحها، ثم قالت:
- لا أعرف... حقًا لا أعرف.
- أختي أعلم أنك قلقة بشأن هذا المنزل، ولكن انظري لحالنا...لو انتظرنا تحت المطر خمس دقائق إضافية لهلك جسدنا الضعيف...دعينا نذهب حتى هدوء الطقس.
فرضخت لأمره؛ لأنه ليس لديها خيار غير ذلك
- حسنًا...دعنا نذهب.

* * * *

ما زال في طريقه إلى عمورية وهي بجواره حزينة وقلبها مضطرب... فتحدث قائلًا:
- لقد عاودت الأمطار من جديد والطقس يزداد سوءًا...لا أعرف كيف يمكنني القيادة؟
فظهر الفزع على ملامحها البائسة، ثم قالت:
- أتوسل إليك يا حسن...لا بد من وصولنا لعمورية مهما كانت الأزمات التي نواجهها... أبنائنا في خطر ولا بد من لحاقهما قبل أن يحدث لهما سوء.
- تحية من فضلكِ تحلي بالثبات...لا داعٍ لتوتريني أكثر من ذلك.
- وكيف لي أن أتحلى بالثبات وأنا أعلم أن أبنائي في خطر.
فحدثها وهو يلومها قائلًا:

– تحية تذكري أنك السبب في ذهابهما إلى تلك البلدة ولولا قرارك الخاطئ الذي أخذته بدون علمي ما كان حدث ما حدث.

– أعلم أنني السبب يا حسن... أنت محق في حديثك، ولكن دعك من هذا الحديث حاليًا وفكر بعقلك في أبنائك.. إنهما في حاجتنا الآن...كارما وآسر يا حسن...أبنائنا الذين عوضنا الله بهما بعد سنوات الحزن التي عشناها في انتظار رضيع يهتف باسمينا.

فسقطت دمعة حزينة من عيونه ثم أردف:

– لا تقلقي يا تحية سنصل لأبنائنا حتى لو اضطررنا للسير قدمًا.

* * * *

فظهرت على شفاهي ابتسامة ضائعة على إثر الصورة الضبابية التي رأيتها، شاهدتهم جميعًا أمام مرمى بصري على مقربة من باب الغرفة، الشبح ذو الرداء الأسمر وبجواره الطفلة والمرأة المقتولة التي انتفخت بطنها، أما أمي فكان يبدو عليها الحزن والاستسلام وبجوارها المرأة ذات الشعر الأبيض والبشرة المجعدة، فكانت تتساقط الدموع من عيونها بغزارة بعكس التي أنجبتني وظننت أنها تحيا بأثري، فحاولت التدقيق في ملامحهم بتمعن ثم ابتسمت ابتسامة لا تحمل للخوف عنوان لكونها ابتسامة استسلام ورضا بالأمر الواقع، وفجأة اقتربت الطفلة مني وهي باكية ثم أخذت بيدي كي أنهض معها، فنهضت معها وأنا مستسلم لا أبالي لأي شيء حولي، ثم قادتني إليهم وبعدها توجهت لمكانها بينهم وكأنها هي الأداة التي يحركونها بأمر منهم، ولكن في حقيقة الأمر إنها ليست بأداة كما اعتقد عقلي المشتت ولكنها مثلهم اتحدت معهم من أجل

أخذ حقها المسلوب الذي سلب بواسطتي دون رحمة ولا شفقة مني، وعندما وقفت أمامهم بهيئتي البالية وبكياني الفاني وبقلبي المحطم المنهك وجدتهم جميعًا يتحركون نحوي وشكلوا حولي حلقة دائرية فأصبحت في منتصفهم فريسة يريدون صيدها باستثنائها، المرأة ذات الشعرالأبيض، فلقد ظلت مكانها حزينة باكية وفي حالة من الانهيار التام، أنظر إليها وتنظر إليّ وكأن بيننا رابط مقدس يغوص بين أغوارنا، وفجأة تحولت نظراتي البائسة التي تلاقت مع نظراتها المستكينة إلى نظرات فزع ودهشة وذلك حينما تحولت معالم وجههم جميعًا وتحولت لمعالم أشخاص كانوا يحيون معي، أشخاص أعلمهم جيدًا ويعلمونني علم اليقين، فلقد ظهرت أمامي ملامحهم في الفترة التي كانوا يحيون فيها وهي منذ سنوات مضت، فكانت الصورة الأولى لأمي بشكلها الحالي الذي كساه الحزن والوهن وصورتها في صباها والابتسامة على ملامحها، أما الصورة الثانية فكانت لتلك الطفلة، صورتها في الماضي والدموع في عيونها لا تتركها قط هي نفس دموعها في هيئتها الحالية، أما الصورة الثالثة للشبح ذو الرداء الأسمر فكانت صورته في الماضي صورة عمي فؤاد وهو شاب في بداية الثلاثينيات، فرجعت للخلف على إثر الرهبة التي تملكت من وجداني، ثم تحركت بنظري للمرأة المقتولة فوجدت صورتها في الماضي بائعة الحليب التي كانت تأتي إليَّ في فترة ما ثم اختفت فجأة، فتملك الفزع مني وتبددت قوتي وانحبست أنفاسي وأصبحت جسدًا فانيًا بلا روح تسكنه؛ وذلك لأنني علمت مصيري الذي في انتظاري، مصيري الذي لا

يستغرق سوى دقائق معدودة كي تغلق صفحتي المعكرة التي تلوثت بدمائهم المتناثرة.

وفجأة وجدتهم جميعًا ينقضون حولي كي ينالوا مني، الشبح ببلطته اللامعة والطفلة التي من دمي وفي يدها حبل كبير وكأنها تريد أن تأخذ روحي حتى يهدأ ألمها الساكن داخل طفولتها المسلوبة عنوة، أما بائعة الحليب فنظراتها المريبة لي كفيلة على إنهاء حياتي بأكملها، فكانت عيونها شديدة الاحمرار وكأنها نار منصهرة تريد أن تحتضنني بشدة حتى تطفأ بلهيبها آلام حبها الذي أفنى شبابها، أما أمي فكانت على الحياد بينهم، تنظر لي بقلب منكسر، ولكنها كانت طرفًا في تلك الحلقة التي نُصِبت بتدبير محكم بينهم، فعاودت بنظري إليها بضعف متمركز في بنياني فوجدتها باكية متألمة وتشيح لي بذراعها، فحاولت النظر لوالدتي ثانية كي أستعطفها بنظراتي ولكني وجدتها مثلهم تلتف حولي، ولكن بعيون مدمعة، فحدثتها بصوتي الواهن متسائلًا:

– أمي أأنتي مثلهم تريدن موتي؟ لماذا يا أمي؟؟ أنا ابنك جاسر...ابنك المدلل الذي تحملين له كل معاني الحب والإنسانية...كيف لكي بقتل وليدك الذي تمنتيه في حياتك السابقة؟ كيف يا أمي؟ كيف؟...ثم أجشت في البكاء للحظات، ولكني حدثتها ثانية:

– أنا أعلم جيدًا أن حبك لي تحول لكره...محبتي حبي من أجله هو...لهذا الحد عشقتِه وتخليتِ عني وعن أبي...دمرتِ سعادة أسرة بأكملها من أجل شخص انتهك كل شيء ليس من حقه...إنكِ ملعونة مثله...ملعونة مثله...ملعونة مثله.

ثم توجهت بنظري لتلك المرأة الواقفة على مقربة منهم وحدثتها بعيوني الباكية وقلبي المظلم: – زوجة عمي...أمي تخلت عني من أجله...تخلت عن وليدها من أجل رجل دمركي ودمرني تدميرًا...من فضلك افعلي شيئًا...أنقذيني منهم...أعلم أنكِ تحملين لي الحب والسعادة وأنا كذلك أحبك كثيرًا...أحبك حبًا يفوق حبي لأمي التي تخلت عني وتركتني في مصيبتي...من فضلك لا تخذليني وأنقذي شابًا عاش طيلة عمره حزينًا يائسًا...أنقذي جاسر يا زوجة عمي.

فانفطر قلبها عليَّ وكأنني ابن أنجبته من بطنها، ثم تحركت من مكانها وتوجهت حولي قاطعة الدائرة التي نصبوها من أجل محاكمتي، فوقفت أمامي وأصبحت هي الجدار العازل الذي يحميني من هول مكائدهم ثم نظرت إليهم بعيون متوسلة بأن يتركونني، بينما أنا ممسك بظهرها وكأني طفل ممسك بأمه كي يحتمي بها من الأخطارالتي تداهمه، وفجأة وجدت نفسي ممسكًا بهواء الغرفة ولا يوجد أثر لهم جميعًا، لقد اختفوا بما فيهم زوجة عمي التي كانت رحيمة عليَّ بنظراتها وبقلبها الحاني، فظللت التف حول نفسي من شدة تلك الصدمة القاتلة وأنا واضع يدي على أذني ومغمض العينين ثم صرخت بأعلى صوتي وتحدثت:

– إنني أحلم...إنني أحلم...إنني أحلم بالماضي...أحلم بالماضي.

* * * *

فاقتربا سويًا من المنزل بينما هي رمقته رمقات فاحصة من عيونها التي كساها الحزن والفزع فوجدته منزلًا مبنيًا بواسطة الطين وليس بمادة أسمنتية، ومساحتة فكانت لا تتعدى الخمسين مترًا، بينما ارتفاعه فكان

لا يتجاوز المتر والنصف وسقفه مغطًا بواسطة الجريد وقش الأرز، أما بابه فكان في المنتصف عبارة عن باب خشبي متهالك، وعلى يمينه ويساره نافذتان صغيرتان محاطتان بالحديد من الخارج وكأنه حصن الأمان لتلك العائلة القاطنة فيه، كحماية لهم من عبث اللصوص...فحدثها الطفل متسائلًا:

- أختي لماذا تحدقين هكذا؟

فأجابته في توتر:

- على هذا المنزل المهجور الذي غطاه الزمن وجعل منه بؤرة للأشباح وشياطين الإنس.

- أختي، هذا مكان نختبأ به لحين انتهاء الأمطار وليس مكانًا لنعيش فيه...أفهمتِ مقصدي؟

فاكتفت بابتسامة وكأنها ردٌ على إجابته، ثم تقدمت خطوتين من باب المنزل وهو خلفها يتبعها ثم وضعت كفها على الباب فتفاجأت بأنه يفتح بسهولة وسلاسة يبدو وأنه مفتوح منذ سنوات، يكاد أن آخر شخص كان يسكن به تركه دون أن يغلقه...فحدثته قائلة:

- الباب مفتوح.

- حسنًا، هيا نتقدم للداخل.

فتقدمت داخل المنزل مع أن قلبها غير مطمئن، ولكن هذا هو المأمن الوحيد لهما في هذا الطقس، ثم تحركت خطوات بسيطة في صالة المنزل ونظرت حولها فوجدت على يمينها غرفة وعلى يسارها غرفة أخرى، ثم تابعت السير في صالة المنزل ومن خلفها آسر ممسك بظهرها، فوجدت

مطبخًا صغيرًا جدًا وبجواره دورة مياه بمثل حجم المطبخ، فنظرت على الأرض فوجدت التراب يفترش المكان ثم تعالت بنظرها إلى السقف فوجدت نسيج العنكبوت قد نسج خيوطه، فعلمت حينها أن هذا المكان لم يدخله بشر منذ سنوات، ثم توجهت إلى الغرفة التي ناحية اليمين وفتحت بابها بهدوء شديد ثم تقدمت داخلها ومن خلفها صغيرها آسر، وفجأة وقع نظرها على أرض الغرفة وهي في حالة من الدهشة والاستغراب ثم أردفت:

- هاتفي!! ماذا أتى به إلى هنا؟

أما الفزع فتملك من ملامح الصغير...ثم حدثها قائلًا:

- أختي، انظري بجوار الهاتف!!

فنظرت أرضًا فصعقت مما رأت.

- ١١ -

فلقد وجدت ماجدًا أمامها ملقًا أرضًا على جانبه مغشيًا عليه، فأطلقت صرخة نابعة من فؤادها، ثم نطقت باسمه:

- ماجد!

ثم تقدمت إليه وجثت على ركبتيها في فزع، وحدثته قائلة:

- ماجد ماذا حل بك؟ ماذا أصابك؟ ومن أتى بك إلى هنا؟

فكان نائمًا بجسده بل وعقله أيضًا، فتوجّه آسر بالقرب من رأسه، ثم حدثه باكيًا:

- صديقي ماجد...ماذا حل بك؟

ثم نظر لأخته وقال في فزع:

- كارما ماجد لا ينطق...يبدو أنه فاقدٌ للوعي.

فحدثته بعدما تبدلت ملامحها وقالت:

- ماذا سنفعل الآن؟

فأجابها ذلك الصغير وقال:

- أختي، لا بد من حمله ووضعه على تلك الأريكة ثم نحاول إفاقته سويًا.

- حسنًا.

فنهضت كارما من مكانها وتوجهت ناحية قدمه وحملته بذراعيها، بينما آسر حمله من ناحية رأسه إلى أن وضعوه على تلك الأريكة التي توجد بالغرفة، إنها أريكة حالها مثل حال باب المنزل متهالكة، ولكنها تفي بالغرض المطلوب منها، وكان بالقرب من تلك الأريكة خزانة قديمة أبوابها.. واضح من معالمها أن عوامل التعرية قد أثّرت عليها. فبعد أن وضعاه بظهره على تلك الأريكة جلس آسر بالقرب منه محاولًا إفاقته، أما هي فكانت تقف بجوار رأسه والدموع في عيونها تسري إلى وجنتيها والحزن مخيم على كيانها...بينما حدثه الصغير قائلًا:

- ماجد...من فضلك استقيظ...استيقظ يا ماجد...ماجد هذا أنا...صديقك آسر...انظر يا ماجد كارما تبكي عليك...وليست كارما لحالها بل أنا أيضًا أبكي عليك...من فضلك استيقظ...استيقظ يا صديقي!

فجففت دموعها ثم تحدثت:

- آسر سوف أذهب من أجل إحضار الماء لعله يفيق.

- ولكن يا كارما من أين ستحصلين على ماء وأنتِ رأيتِ بعينيك المكان.. إنه غير مؤهل للسكن.

- سأحاول تفقد المكان جيدًا.

- حسنًا.

فغادرت الغرفة وهي حزينة وقلبها منفطر عليه ثم توجهت إلى مطبخ المنزل وهي تتفقده بضوء هاتفها الذي وجدته بجوار ماجد في أرض

الغرفة ثم فتحت صنبورالمياه، ولكنها وجدته فارغًا لا يوجد به قطرة ماء واحدة، فبدا الفزع عليها ثم تحركت إلى دورة المياه وفتحت صنبور الحوض فوجدته أيضًا فارغًا، فمررت كفها بين خصلات شعرها مفكرة في كيفية الحصول على الماء، فخرجت من مكانها وتوجهت ثانية إلى المطبخ وألقت نظرة تأملية فوجدت على جدارالمطبخ خزانة خشبية معلقة مفتوحة من الجانبين ويتوسطها لوح خشبي قسمها إلى شقين، فوجدت بداخل الخزانة قدر صغير من الألمونيوم، فتقدمت إليه وأخذته ثم ركضت مسرعة متخطية صالة المنزل ثم فتحت باب المنزل ووضعت القدر أرضًا حتى يمتلأ بماء المطر، فانتظرت ما يقرب من السبع دقائق ثم توجهت وأخذت القدر من الأرض بعد أن امتلأ نصفه وذهبت به مسرعة إلى أخيها الذي وجدته يحاول إفاقته بضربات خفيفة على وجهه كي لا يتألم، فتوجهت بالقرب من آسر ووضعت القدرعلى حافة الأريكة بالقرب من ساق ماجد.

فتحدث آسر وقال:

- لماذا تأخرتِ هكذا يا كارما؟

- لا يوجد ماء في هذا المنزل فاضطرت أن آخذ هذا القدر وأضعه ليمتلأ بماء المطر.

- أختي...شكرًا لعقلك الذي فكر وأنقذنا من هذه الورطة.

- لا يوجد وقت للمزاح يا آسر...عليك بإفاقة ماجد قبل أن تسوء حالته الصحية.

- حسنًا يا أختي.

فأخذ بعض القطرات ووضعها على وجه ماجد كي يفيق، فظل يكررها على أمل إفاقته، ولكن دون جدوى، لا زال ماجد في عالم آخر، فتملك الفزع من ملامحها البريئة أما الدموع فكانت لا تكف عن سريانها من عيون ذلك الطفل الذي شاهد أهوالًا مريرة في هذه الليلة.

فتحدث في فزع:

- أختي، ماجد لا يفيق!!

فحدثته في خوف:

- حاول مرة أخرى يا آسر ولعله يسترد وعيه.

- أختي حاولت مرارًا وتكرارًا أمامك ولكن دون فائدة...أعتقد أنه بحاجة إلى مشفى متخصصة.

فقالت في فزع:

- مشفى!!

* * * *

انتهيت من صراخي الذي أهلك أحبالي الصوتية على رؤية الطفلة الصغيرة أمامي مرة أخرى

وهي تضحك لي ضحكات مفتعلة وكأنها ضحكات النصر والوصول للهدف، فاحتلى الفزع والتوتر ملامحي ثم حدثتها:

- مريم...ماذا تريدين مني؟!!

فظلت تنظر إليّ وهي ما زالت تضحك بأعلى صوتها ولا تبالي لحديثي قط...فحدثتها ثانية:

- علامَ تضحكين!! على ضياع أخيكِ الأكبرالذي حولتموه إلى شخص مجنون أم على أخيكِ الذي تحولت حياته إلى جحيم بسبب أفعالكم التي أحدثتموها في الماضي!!

وعندما انتهت من ضحكاتها الرنانة المخيفة اقتربت مني ونظرت في عيوني المكنسرة بعد أن تحولت نظرات عيونها لنظرات رعب مفزعة، فانتفض جسمي بأكمله من تحول معالم وجهها ثم تراجعت نصف خطوة للخلف...بينما حدثتني الطفلة بصوت غليظ مرعب وقالت:

- جاسر أنت لست أخي...لست أخي.

فتملك الخوف من بنياني الهش وأصبح عقلي مشتتًا غير مستوعب لحديثها ولا تعابير وجهها المرعبة... ثم تابعت حديثها بنفس نبرة صوتها التي حطمتني من الداخل:

- إنني بريئة منك ومن أفعالك التي أحدثتها في الماضي...أفهمت! بريئة منك.

فحدثتها في ضعف:

- مريم لا تتفوهي بمثل هذا الكلام...أنا جاسر أخوكِ الأكبر... جاسرالذي أحبك في الماضي وجعلك صغيرته المدللة التي يحمل لها كل المشاعر الطيبة.

وفجأة تعالت ضحكاتها مرة أخرى، ثم نظرت في عيوني بغل بعدما أنهت ضحكاتها الساخرة ثم تفوهت:

- صغيرتك المدللة التي تحمل لها كل المشاعرالطيبة! أم صغيرتك التي جنيت عليها واغتصبت طفولتها البريئة دون ذنب واحد اقترفته في حياتها القصيرة!!

فتملك الفزع مني أكثر، بينما هي أكملت حديثها وقالت:

- يبدو أن عقلك أصابه الزهايمر وجعله ينسى ماذا حدث؟ ولكن عليك الآن أن تتذكر ماذا حدث في الماضي...الماضي الذي سيطاردك ما دمتَ حيًا.

ثم أشاحت في وجهي بسبابتها صارخة:

- جاسر أنت عدوي اللدود...أفهمت! أنت أكبرعدو لي وجئت إلى هنا من أجل القصاص...جئت من أجل الانتقام...جئت لأزهق روحك يا جاسر.

فظللت أتوسل لها بنظراتي الحزينة وبكلامي الممزق فأردفت:

- لا يا مريم...لا...أنتِ تحبين أخاكِ جاسر وليس من السهل قتل شخص كنتِ تحبينه وتعتبرينه كل عالمك الخاص.

فحدثتني بصوتها الطفولي وقالت:

- حقًا، كنت أحبك حبًا جمًا...حبًا ليس له مثيل في هذا الكون...

ثم أكملت حديثها في صوت أجش غاضب:

- ولكن حبي تحول لكره وانتقام...لقد حان الآن وقت الانتقام واسترداد الحقوق المسلوبة...قد حان وقتك يا ابن أمي.

فأشحت لها بذراعي متوسلًا ثم حدثتها:

- لا يا مريم...لا...من فضلكِ أن ترحميني وتعفي عني.

فحدثتني بصوت مرتجف باكٍ:

- الآن تتوسل لي من أجل أن أرحمك وأعفو عنك...ولماذا في الماضي لم ترحم طفلة لا يتعدى عمرها السبع سنوات؟ طفلة ليس لها ذنب في الحياة ولا تعي لها شيئًا...لماذا يا أخي؟ لماذا؟

فحاولت تحريك رأسي يمينًا ويسارًا في ضعف واستسلام؛ لأنه لا يوجد من الكلام ما يمكن قوله، حديثي الآن أصبح لا فائدة منه، لقد عزمت النية على الانتقام مني وليس بإمكانها الرجوع عن قرارها مهما كان، لقد تيقنت بأن أجلي قد حان على إيديهم ولا سبيل للمفر، وفجأة تقدمت نحوي وهي غاضبة مستشاطة، بينما أنا أتراجع للخلف في حالة من الدمار الشامل، فكلما تقدمت نحوي تراجعت أنا للخلف إلى أن وقعت بجسدي على الأغراض المبعثرة التي حطمتها حينما كنت ثائرًا، فاقتربت مني أكثر بجسدها الطفولي الهزيل، وأصبحت هي المسيطرة على جسدي الذي تراخى وبإمكانها قتلي بكل أريحية، وفجأة تشخصت عيني وذلك عندما وجدتها ترفع زراعها للخلف وتأتي بسكين كبير من خلف ظهرها، في تلك اللحظة عيني كادت أن تقتلع من مكانها لأني غير مصدق بأن نهايتي قد حانت على يد تلك الطفلة، فحاولت أن أبتلع ريقي ثم تمعنت في نظراتها المريبة التي أصبحت ساكنة على وجهها، فوجدتها تقرب السكين من وجهي بينما أنا أرتجف، وفجأة إذ بها بقوة شديدة رفعت السكين للأعلى ثم هبطت به على جسدي، فتعالت صرخاتي التي اهتزت من أثرها جدران ذلك القصر ثم تناثرت الدماء على الجدار المجاور لي.

* * * *

فحدثته كارما قائلة:

- ولكن يا آسر كيف نذهب به إلى المشفى وأنت تعلم جيدًا أين نحن؟

- أعلم يا أختي...ولكن حالته سوف تزداد سوءًا لو تركناه هكذا.

فقالت في ضعف:

- وما العمل إذن؟

- لا أعلم...ولكن يمكنني المحاولة ثانية ولعله يستيقظ.

- حسنًا.

فواصل آسر مهامه بسكب قطرات الماء على وجهه، بينما هي فكانت ناظرة له في حزن داعية ربها بأن يسترد وعيه ويعافى مما هو عليه.

فأردف قائلًا:

- أختي لا فائدة من سكب الماء على وجهه....إنه غير مدرك لشيء.

ثم توقف عن سكب قطرات الماء عن وجه وتابع حديثه:

- هذه ليست حالة إغماء كما اعتقدنا...إنها حالة غيوبة ولا بد من الذهاب به إلى المشفى لكي ينجو بحياته.

فقالت في فزع:

- ولكن كيف؟ كيف يا آسر؟!!

ثم تحركت خطوات بسيطة والدموع في عيونها مترقرقة، فقام هو الآخر من مجلسه واقترب منها متحدثًا:

- أختي اتركي دموعك الحزينة وفكري معي بعقلك المدبر...ماذا سنفعل؟؟ ماجد يحتاج إلينا...ماجد كان يفكر في خلاصنا لنعود إلى

أهلنا...حان الآن لنفكر كيف يمكننا مساعدته مما هو عليه؟ والعودة به إلى زوجته المريضة التي تموت عليه قلقًا.

فأردفت في ضعف:

– صدقني يا آسر قلبي يبكي عليه بشدة وكأنه فرد من أفراد عائلتنا وأتمنى أن أساعده بكل طاقتي....

ثم تابعت كلامها في حزن:

– ولكن في هذا المكان اللعين لا يمكننا مساعدته ولا مساعدة أنفسنا... لقد حُكم علينا بالموت في هذا المكان...الآن ماجد ثم نحن...لقد حانت النهاية يا صغيري...لقد حانت.

– أراكِ مستسلمة لما حدث يا كارما...أراكِ تفقدين الثقة في قدرة الخالق وهو من قال "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون" وهو من قال أيضًا "لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا" هذا هو كلام الله عز وجل الذي حدثتِني به منذ قليل...لماذا إذن تستسلمين وتضعفين والله موجود ويرانا وهو أعلم بحالنا وهو وحده الذي يعلم بمصيرنا الذي توقعتِه أنتِ منذ قليل.

فقالت في حزن وقلق:

– أستغفرك يا ربي وأتوب إليك، أعلم أنك قادر على كل شيء وأعلم أنك غفور رحيم وأعلم أنك ترانا وتسمعنا وأعلم بأحوالنا، يا إلهي مد لنا يد العون وأخرجنا من هذا المكان الذي لا نعلمه ... يا إلهي أكمل شفاء ماجد من أجل أن يعود لزوجته المريضة التي تموت من غيره... يا رب كن معنا في محنتنا ولا تكن علينا...إننا في حاجتك يا ألله وليس لنا أحد سواك.

فربت آسر على كتفها ثم قال:

- والله يسمعك وبإذنه سنخرج من هذا المكان...ويشفي ماجد ونعود إلى ديارنا من جديد. ثم تركها وتوجه إليه، فجلس جواره وظل يسكب عليه قطرات الماء من جديد ولكن دون جدوى، فوضع القدر أمامه بجوار ساقه وأثناء وضع القدر لمست يده كف ماجد وعلى إثرها خرجت منه صرخة جعلت كارما تلتفت إليه في حالة من الفزع، فتوجهت إليه متسائلة:

- ماذا حدث؟؟؟

- فقال والفزع على ملامحه:

- أختي، ماجد!!

- ١٢ -

فحدثته فازعة:

- ماذا حدث لماجد؟ تحدث!!

- ماجد حرارته مرتفعة جدًا...لقد لمستُ كفه وأحسست بسخونته.

- يا إلهي.. وما العمل يا أخي؟

فوضع كفه على جبينه فوجد درجة حرارته في تزايد، ثم تحدث:

- لا بد من إيجاد طريقة لنخفض بها حرارته حتى لا تؤدي إلى عواقب وخيمة.

فتملك الضعف والحزن من كيانها ثم أردفت:

- ولكن كيف ونحن عالقون في هذا المكان دون حول منا ولا قوة؟

فحدثها وقال:

- كارما أتتذكرين حينما كنتُ مريضًا وحرارتي مرتفعة بعض الشيء.

- نعم، أتذكر.

- حسنًا...وهل تتذكرين ماذا فعلت أمي حينها؟

- هل تقصد أن نضع له كمادات لنخفض بها حراراته المرتفعة؟

- بالطبع...الكمادات هي أنسب علاج في وضعنا الحالي.
- ولكن كيف يا آسر ولا يوجد معنا قدر كاف من المياه ولا قماشة نضعها على جبينه!
- كارما هل حدث لعقلك شيء؟ الماء متوفر بالخارج وإن لم يكن متوفرًا فالقدر ما زال به ماء وفير.
- حسنًا، ولكن كيف يمكننا الحصول على قماشة لكي نضعها على جبينه؟
- مثلما حصلتِ على الماء بتفكير منكِ سوف نحصل على القماشة.
- أتظن أن بالخارج قماش...هل تعتقد أن في هذا المكان أدوات تفيدنا في ليلتنا هذه.
- أختي، لا أقصد بالخارج، لكني أقصد بالداخل...انظري أمامك.

فنظرت أمامها متفحصة ثم قالت:

- لا يوجد شيء أمامي غير تلك الخزانة المتهالكة!!
- وهذا ما أقصده يا كارما.. هذه خزانة متهالكة مثلما تفوهتِ بالكلام، ولكنها تنفعنا مثلما نفعنا هذا القدر الذي مضى عليه حقبة زمنية، هذه الخزانة لا بد من وجود ملابس داخلها.

فحدثته مبررة:

- وهل تعتقد أن الملابس التي زعمت أنها موجودة بداخله قد تكون صالحة للاستخدام الآدمي؟
- لا بد وأن تكون صالحة للاستخدام...ولو فرضنا بأنها ممزقة ربما تنفعنا أيضًا.. كل ما نحتاجه الآن فقط هو قطعة قماش صغيرة لا أكثر.
- حسنًا، دعنا نستكشف.

- سوف أظل بجوار ماجد وأنتِ اذهبي وتفقدي الخزانة جيدًا.
فأومأت برأسها إيجابًا، ثم تحركت من مكانها متجة إلى تلك الخزانة بواسطة ضوء الهاتف الذي لم يفارق يدها قط، وعندما اقتربت منها وحاولت فتح بابها بهدوء تفاجأت بسقوط ذلك الباب لمجرد أن لمسته ثم سقط أرضًا، يبدو أنه كان في انتظار يد حانية تلمسه كي يستريح من وضعه الذي أرهقه لسنوات، فتراجعت خطوة للخلف وهي فزعة، بينما صوت ارتطامه بالأرض أزعج أخاها فجعله يلتفت إليها، ثم حدثها متسائلًا:
- أختي ماذا حدث؟
- اطمئن يا آسر لقد سقط باب الخزانة.
- حسنًا، تفقدي الخزانة جيدًا ولكن رجاءً انتبهي على نفسك.
فأومأت مرة أخرى برأسها إيجابًا ثم واصلت البحث بداخل تلك الخزانة التي أشبه بمقلب القمامة، فوضعت الهاتف في يدها اليسرى أما يدها اليمنى فجعلتها للتفقد والبحث، لقد وجدت ملابسًا مبعثرة قديمة متهالكة، فيبدو من أول قطعتين قد أمسكت بهما أنهما ملابس امرأة، ثم تابعت البحث فأمسكت قطعة أخرى وتفحصتها جيدًا، إنه فستان لطفلة من المحتمل أن تكون قد بلغت التاسعة من عمرها، ثم أمسكت بقطعة أخرى فكانت سترة صغيرة جدًا يبدو أنها ملابس طفل رضيع قد بلغ عامه الثاني، فعلمت أن هذا المنزل كان يقطن فيه أسرة مكونة من أم وطفلة وصبي رضيع، أما الأب فلا يوجد أثر لملابسه، فتيقنت بأنه كان لا يمكث معهم في هذا المنزل ربما توفي أو غادرهم دون رجعة،

فتفحصت مرة أخرى دون أن تبالي فوجدت ملفًا ورقيًا ممزقًا تحول لونه من اللون البني إلى اللون الأصفر وبداخله أوراق قد طغى عليها الزمن بعثراته، فأمسكت به وتفحصت ما بداخله، فأمسكت بأول ورقة من وريقاته فكانت ورقة لجريدة صحفية قد مضى عليها فترة زمنية قد تجازوت العشرين عامًا بل وأكثر، إنها ورقة متهالكة فقدت بريقها ورونقها وتحولت من اللون الأبيض الزاهي إلى اللون الأصفرالمطفي مثلها مثل الملف الورقي الذي كان يحيمها، باب الفضول قد زار عقلها وجعلها حولت نشاطها من البحث عن قطعة قماش لعلاج الشاب الراقد إلى استكشاف خبايا هذا المكان، فوضعت الهاتف في فمها ثم أمسكت ورقة الجريدة وحاولت أن تقرأ ما تخفيه سطورها، بينما آسر ما زال يحاول إفاقة ماجد تارة ومحاولة خفض حرارته تارة أخرى، فقد كان يسكب الماء على وجهه ثم يمرره على جبينه لعل الحرارة تهدأ رويدًا، أما هي لا زالت ممسكة بصفحة الجريدة وتقرأ ما فيها بتمتمة يكاد أخوها لا يسمعها...

محتوى صفحة الجريدة:

إنها بلدة تدعى عمورية، البلدة التي أفزعت كل من فيها في ذلك الوقت، إنها بلدة متطرفة عن المدينة، فكان غالبية سكانها من الفقراء المحتاجين الذين يعملون بالزراعة من أجل كسب قوتهم اليومي، جميعهم يعلمون بالفلاحة في مزارع "نبيل عمورية" ذلك الرجل الذي أرهب سكان البلدة بأكملها بجشعه وطمعه ونفوذه التي أغلقت كل المنافذ أمام الفلاحين الذين يعانون من قهر وظلم واستبداد، استمر ظلمه لسنوات عديدة ولم يتنحَ مرة واحدة عن أفكاره وثوراته الهائجة التي كان يشنها

لهؤلاء الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة، جعلهم عبيدًا مستضعفين يملكهم في قبضة يده، لا يحق لأي فلاح الاعتراض على أي قرار قد يصدره مهما كان.. وكان آخر قراراته التي أطاحت به هي العمل لمدة ست عشرة ساعة متواصلة على مدار يومهم، أما قوتهم اليومي فقد تناقص للضعف وكل هذا بحجة أنه سوف يعوضهم حينما يجني ثمرة محصوله وهذا كلام لا يعتقد به الفلاحون لأنهم يعلمونه جيدًا، كان لا يتحدث معهم بفمه الذي وهبه الله له ولكن كان حديثه مع هؤلاء المستضعفين من خلال يده...السياط...هذا هو حديثه معهم، فكان يهبط على جسد الفلاح الهزيل الذي لا ينصت لحديثه أو يعترض على أي قرار من قراراته فيمزقه إلى أشلاء، كان غليظًا لا يلين أبدًا لأي بشر حتى لو كانت زوجته المسكينة وأطفاله الذين يحملون اسمه ونسبه.

نظرة الفلاح له كانت نظرة خوف ورهبة وفزع وكأنه حاشا لله الإله الذي يعبدونه، كان في قمة سعادته عندما يسيطرعليهم دون اعتراض من قبلهم، إنه الأقوى والقادرعلى فعل كل شيء، كان هذا تفكيره العقيم الذي يأتي في خاطره، إن كان هو أقوى من وجهة نظره فيوجد من هو أقوى منه وهو رب هذا الكون، إنه الله الخالق المصور القادرعلى كل شيء، ولكن كيف يعلم الله وهو لم يصلِ صلاة واحدة في حياته؟ لم يفكر في أن يركع ركعة واحدة للخالق وكأنه يأبى أن يركع لأحد، وهذه كانت شهادة الفلاحين وأهل بيته الذين عاصروه في تلك الفترة، كان يحمل كل الخصال السيئة التي تنفر منها البشر، ولكنها كانت بالنسبة له خصالًا

حميدة وليست بمذمومة، فكان الفلاحون يطلقون عليه لقب فرعون موسى؛ لأنه مثله ظالم ومستبد وناكر لكل شيء.

ظلوا يرددون هذا الاسم على ألسنتهم لسنوات عديدة إلى أن أتت نهاية هذا الفرعون التي طال انتظارها، فرعون موسى كان ظالمًا مستبدًا ناكرًا للألوهية، كان جبارًا بكل المقاييس الفعلية وكأنه مخلد في دنياه ولن تأتي نهايته أبدًا.

عالمنا الجليل نيوتن قد وضع قانونًا من ضمن قوانين الحركة وهو: لكل فعل رد فعل يساويه في الشدة ويعاكسه في الاتجاه، فكانت أفعال فرعون موسى لها رد فعل يذكرعلى مر الزمان ومسجلة في كل الكتب السماوية ليكون عبرة للبشرية هذا هو فرعون موسى، أما فرعون عمورية تكاد أن تكون نهايته مختلفة بعض الشيء عن نهاية فرعون موسى ولكن النتيجة واحدة وهي النهاية...فكانت نهايته هي الموت، حقًا الموت ولكن ليس بالموت الطبيعي وإنما الموت قتلًا ثم حرقًا، في ذلك اليوم الذي أصدر فيه فرمانه غير القابل للنقاش وهو أن يعمل الفلاح في أرضه لمدة ست عشرة ساعة متواصلة يفصلها ربع ساعة على مدار اليوم لكي يتناول فيها غداءه الذي كان عبارة عن رغيف من الخبز وقطعة من الجبن، هذه هي وجبته التي تسد جوفه على مدار يومه، أما بالنسبة لأجره نظير العمل فقد تضاءل وأصبح الفلاح يحصل على نصف أجره، ظلوا مجبرين على هذا الوضع أيام وليال طوال إلى أن أتى رجل من بينهم رافض للظلم والفساد، اجتمع بهم ليلًا في مقهى البلدة، وظل يقص عليهم أحوالهم وأوضاعهم التي تبكي عليها الحيوانات المستذئبة، الحيوانات المستذئبة

التي تحمل الشراسة بداخلها من الممكن أن تبكي عليهم وترأف بأحوالهم المعدومة، ظل يحثهم على الانتقام من أجل استرداد حقوقهم المسلوبة وأراضيهم المغتصبة التي تحولت ملكيتها إلى نبيل عمورية عنوة والعمل بها بأجر زهيد، كلامه انصهر بداخلهم ووصل لدرجة الغليان، فقد تركوا المقهى وتحركوا جميعهم في تسلل إلى أن وصلوا إلى الأراضي التي يعملون فيها رغمًا عنهم؛ لأنها كانت مملوكة لهم في يوم ما وأصبحت ملك هذا الطاغية الذي لا يعرف حدود الله، فقاموا بإشعال النار في جميع الاراضي التي أصبحت ملك هذا الفاسد المستبد، فتزايدت النيران وأكلت كل المحاصيل وأصبحت عبارة عن نار حمراء شديدة اللهب، فظلوا يهتفون بقولهم: الله أكبر..الله أكبر، فتجمعت نساء البلدة وأطفالها وبعض الشيوخ الذين بلغوا أرزل العمر وهتفوا معهم فرحين مهللين وكأنه يوم النصر الذي طال انتظاره.

فتسربت الأخبار إلى نبيل عمورية في قصره، لقد جن جنونه، عقله لا يستوعب ما قاله له معاونو الري الخاص به، فنهض من سريره الذهبي اللون الأشبه بسرير الملوك والأمراء بعد أن أغلق الهاتف الموجود على الكوميدينو بجوار سريره، ثم ركض مسرعًا متوجهًا إلى أراضيه ليتفقدها، فهبط سلالم القصر بسرعة جنونية كانت كفيلة على الإطاحة به لولا أنه أمسك بنفسه حتى أن فتح باب القصر وهبط درجات السلم الخارجية المؤدية إلى حديقة القصر وظل يركض في حديقة القصر للوصول لباب القصر الخارجي الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار، فحاول فتح الباب بعد محاولات باءت بالفشل في باديء الأمر ولكنه استعاد قوته

وفتح الباب، وفجأة تغيرت معالم وجهه إلى الفزع والموت الحتمي، لقد وجد أمامه البلدة بأكملها رجالًا ونساء، أطفالًا وشيوخًا حاملين أوتادًا موقدة بالنيران الحارقة، فتراجع للخلف بعد أن علم مصيره ثم حاول إغلاق بوابة القصر كي يحتمي داخله، ولكن سرعان ما فتحت البوابة على مصراعيها ودلفت جماهير البلدة إلى داخل حديقة القصر، فحاول ابتلاع ريقه ثم بدأ بتجفيف العرق الذي تصبب منه بعد ذلك المشهد الذي دمر كيانه، ثم حاول التراجع للخلف ناظرًا إليهم وهم يتقدمون نحوه وكأنهم عقدوا العزم على الانتقام منه، فألقى نظرة سريعة إلى تلك الحديقة التي يقف عليها فوجدها ملغمة بأناس البلدة فعلم بأن نهايته قد حانت، نهاية فرعون قد أتت بعد سنوات من الظلم والاستبداد، أتت لكي يلحق بفرعون موسى في نار الخلد، ظل يتوسل لهم بأن يتركوه وشأنه في سبيل أنه سيعوضهم عما بدر منه ولكن هيهات أن يعود ما مضى.

ذلك الشاب الجريء الذي حثهم على استرداد حقوقهم هو الآن واقفٌ أمام الطاغية نبيل عمورية وجهًا لوجه ولكن مع تبديل الأدوار، نبيل عمورية الخوف متملك منه أما الشاب المستعبَد فالقوة قد اجتاحت بنيانه.

ظل أناس البلدة يهتفون من أجل الثأر، حقًا سوف ينتقم منه ولكن بعد أن يرى الخوف والضعف متملك منه، فقام بإخراج سلاحه الآلي من جيب جلبابه الممزق المتلاشي وصوبه ناحية نبيل عمورية في مقدمة رأسه، ظل ينظر لنبيل عمورية نظرات تحمل في معناها الغل والكره إلى أن أتت

النهاية، ضغط على زناد سلاحه وأطلق طلقته الوحيدة التي توجد بداخله على مقدمة رأسه حتى اخترقتها وخرجت من مؤخرة رأسه فسقط أرضًا على إثرها بعد أن امتلئت رأسه بالدماء، فتعالت الزغاريد والهتافات من جديد، إنه عيد النصرعلى ذلك الطاغية. بعد أن قتله بطلقة نارية أودت بحياته ولم يكتفِ بعد، بل أخذ وتدًا موقدًا بالنيران من رجل يقف بجواره وألقاه على نبيل عمورية حتى أن تمكنت النار من جسده وأصبح هو وقود النار، فتعالت الزغاريد مرة أخرى وأصبحت البلدة كلها في حالة فرح تام.

بينما في شرفة القصر في الطابق الثالث زوجته وولديها سليم وفؤاد يرون ما حدث، فتعالت صرخات الطفلين وتمكن الفزع منهما، بينما هي لا تبالي لمقتله وكأنها كانت تنتظر ذلك اليوم الذي كانت على يقين بأنه قادم، كل ما فعلته أنها أخذت طفليها وغادرت الشرفة وأحكمت إغلاقها ثم دلفت للداخل.

كل ما ذكرتُه عن نبيل عمورية في مقالي هذا حدث في الماضي، فلقد كنت معتقدًا مثل زوجته أن نبيل عمورية صفحة من الممكن أن يطويها الزمن ويتناساها الناس، ولكن سلسلة عمورية ممتدة إلى وقتنا هذا ولا تريد أن يمحيها الزمن، موجودة حقًا لكن بشكل آخر، شكل غريب الأطوار غير مألوف على البشرية في هذه الفترة التي أحدثكم فيها.

العرق دساس مثلما يقال، هذه حقيقة لا يمكن إنكارها أبدًا، لو أنك زرعت خيرًا ستجنيه بالأكيد خيرًا ولو أنك زرعت شرًا ستحصد كل محصولك شرًا، ومحصول اليوم هو حفيد نبيل عمورية طفل لا يتجاوز

الرابعة عشر من عمره، يبدو من عمره القصير أنه طفل ولكن أفعاله التي سوف أحدثكم عنها ليست أفعال طفل بل هي أفعال شيطان ملعون مطرود من رحمة ربه، كيف لطفلٍ في مثل عمره أن يرتكب هذه الحوادث المريبة التي تقشعر لها الأبدان؟ كيف لطفلٍ مثله أن يمحي من كيانه منظومة العائلة التي كانت تحيا في دنياها باستقرار؟ في هذا القصر الذي قتل وأحرق فيه جده نبيل عمورية منذ سنوات عديدة، نفذ فيه حفيده جرائمه الشنيعة إنه –قصر يدعى عمورية– القصر الذي يحمل اللعنة إلى أن تقوم الساعة وبسبب هذا القصر أصبحت بلدة عمورية بأكملها تحمل اللعنة الأبدية؛ لأن بنيان هذا القصر قد ارتوى من دماء البشر بل تناثرت الدماء وروت البلدة بأكملها، وبسبب الأرواح التي زهقت في هذا القصر وأصبحت البلدة ملعونة، هاجر غالبية سكانها إلى البلاد المجاورة تاركين كل شيء باستثناء عائلات قلة ظلت في البلدة لأن لا مأوى لهم غيرها...إنه الاضطرار وقلة الحيلة، صاحب هذه الجرائم حفيد نبيل عمورية هو الطفل الذي يدعى جاسر...

فصرخت صرخة مكتومة ثم أردفت وهي غاضبة:

– يا إلهي كنت أود أن أعرف باقي أحداث هذه البلدة الملعونة...ولكن الورقة غير مكتملة إنها ممزقة.

فحدثها متسائلًا:

– أختي! ماذا تفعلين كل هذا الوقت أمام الخزانة؟ هل حدث شيء ما؟

فنظرت إليه وهي حزينة ثم أردفت:

- اطمئن يا آسر كل شيء على ما يرام، ولكن يبدو من هيئة الملابس أنها غير ملائمة لعلاج ماجد؛ لأنها مليئة بالأتربة والروائح الكريهة.
- كنت أعتقد ذلك ولكن بفضل الله وجدت القماشة التي أضعها على جبين صديقي ماجد.

فحدثته في لهفة:

- كيف؟؟ من أين أتيت بها؟؟
- رابطة عنقي.
- رابطة عنقك!!
- بالطبع...كانت غائبة عن عقلي ولكن تذكرت الآن أنني أرتدي رابطة عنقي ولولا إصرار أمي على ارتدائها لكي تدفء عنقي لكنا عانينا من الحصول على قماشة لإسعاف ماجد.

فابتسمت له ابتسامة حزينة ثم أردفت قائلة:

- حسنًا.

* * * *

وإذ بها بقوة شديدة صعدت بالسكين لأعلى وهبطت بها، فأطلقتُ صرخة رنانة اهتزت لها جدران القصر بأكملها ثم تناثرت الدماء على الجدار المجاور بل امتدت للمرآة التي توجد على هذا الجدار، فخرجت منها صرخة بعدما أصبحت ملامحها مكتظة بالغضب ثم تحدثت بصوتها الأجش وقالت:

- كيف لم يمت؟ كيف؟؟

فأثناء صعودها بالسكين لكي تقطع جسدي ابتعدت قليلًا ناحية اليسار، فأصابت السكين أعلى كتفي الأيمن وعلى إثره تناثرت الدماء من حولي ولكنها لم تودي بحياتي فهذا ما أثارغضبها، فصرخت صرخة مدوية في وجهي ثم اختفت من أمامي، فنظرتُ أمامي بتمعن فوجدتها بالفعل قد اختفت ثم بدأت في أخذ أنفاسي التي اختفت عندما حاولت قتلي، ثم نظرت على مكان الإصابة التي أحسست بألمها فوجدتها تنزف بغزارة، فحاولت وضع يدي على الجرح كمحاولة مني لإخماده ولكنني صرخت صرخة متقطعة مزقت جوارحي بل وأحشائي أيضًا ثم تفوهت متألمًا:

- يا إلهي ماذا أفعل الآن؟

فحاولت تجميع ما تبقى مني من قوة وهممت في النهوض، ثم تحركت في الغرفة متوجهًا إلى الباب حتى أن خرجت منها وأنا لا زلت ممسكًا بجرحي النازف، ثم تحركت بجسدي الذي أصابه الوهن والهذيان في الممر الطويل بين تلك الغرف المغلقة والدماء تتساقط منه في تسلسل فشكلت على أرض الممر خطًا مستقيمًا، ثم اقتربت من غرفتي التي لا زال بابها مفتوحًا حينما خرجت على إثر صرير الباب المرعب، فدلفت داخلها وأنا أجز على أسناني من شدة تألمي إلى أن وقفت في منتصف الغرفة صارخًا من شدة الألم الذي لم يعدني تحمله، وفجأة وقعت من طولي أرضًا مغشيًا عليَّ.

* * * *

بقلبه الطفولي الحنون أمسك برابطة عنقه ثم وضعها في الماء وأخذ يعتصرها ثم وضعها على جبين ماجد، وظل يكررها مرات عديدة على

أمل إخماد حراراته، أما هي لا زالت واقفه أمام الخزانة ممسكة بصفحة الجريدة، حائرة قلقة ومضطربة، تفكيرها مشتت بين الخوف والفزع عندما علمت أحداث تلك البلدة تارة، وبين الخوف والفزع على ماجد الذي أصابه الوهن والمرض تارة أخرى.

لقد وهنت الأنثى التي بداخلها وأصبحت شيئًا معدومًا لا وجود له منذ قدومها إلى هذا المكان، هذه الأنثى كانت قوية في يوم ما ولكن الأنثى التي بداخلها الآن أصبحت هشة مكسورة عندما علمت بمكانها الذي ساقها القدر إليه، أصبحت كطفلة تحتاج من يمد لها يد العون كي تستمد منه قوتها لتعود من جديد، فعندما نظرت إلى ماجد الراقد الغائب عن الوعي تذكرت حديثها معه، وأستشفت قلبه الطيب تجاهها هي وأخيها، لقد توسمت فيه الخير منذ أن ركبت معه بأنه ذلك الحصن المنيع الذي سيحميها ويحافظ عليها حتى أن تعود إلى أسرتها الماكثة في مدينة بازوكلي، ولكن شاءت الظروف وأصبحت الصورة التي أخذتها له صورة ضبابية ومهتزة غير واضحة المعالم، إنه الآن طريح الفراش يحتاج من يمد له يد العون لكي ينهض بحياته.

فجففت الدمعات المتساقطة من عيونها المنكسرة ثم قامت بإرجاع خصلات شعرها الناعمة للخلف وكأنها أعادت تصفيفه من جديد ثم فتحت صفحة الجريدة مرة أخرى محاولة منها أن تحصل على معلومات إضافية تفيدها للإلمام بمعالم هذه البلدة ولكن كيف والورقة بين يديها ممزقة؟ فرمقت الصفحة رمقة سريعة فوجدت في الأعلى التاريخ الذي نشر فيه هذا المقال

ثم أردفت بداخلها:

- هذا يعني أن الطفل ارتكب جرائمه في نفس هذا العام ويكاد في نفس الأسبوع...أي أنه من الممكن أن يكون حيًا يرزق...ولكن ما هو مصيره الآن؟ هل حُكم عليه بالسجن المؤبد أم تم إيداعه في الإصلاحية لحداثة سنه؟

ثم ألقت نظرة أخرى على الصفحة لعلها تحصل على خبر آخر يشبع فضولها، ولكنها لم تجد شيئًا لأن الصفحة متهالكة، فأمسكت الملف الممزق وأخذت تبحث بين وريقاته، فأخذت ورقة أخرى قديمة حالها مثل حال صفحة الجريدة، فحاولت فتحها وقراءة ما فيها فوجدتها عقد زواج شرعي، فكان اسم الزوج غير واضح يبدو أن الماء قد سُكب عليه فلطخ مكانه، بينما اسم الزوجة لم يتأثر كثيرًا، فكانت تدعى صفية، أما باقي اسمها فكان لا يظهر منه شيء، لقد أصابه ما أصاب اسم الزوج، فدار في رأسها التفكير مرددة اسمها-صفية...صفية- لقد مر هذا الاسم على أذنيها من قبل، يبدو أنه مألوف على مسامعها بل وعلى ذاكرتها، ثم واصلت عملية البحث والتفتيش في ذلك الملف فوجدت أوراقًا لا فائدة منها أو بمعنى أدق لا تشبع فضولها في شيء.

فوجدت في نهاية الملف صورة فوتوغرافية مضى عليها فترة زمنية وهذا واضح من جودة تلك الصورة التي تختلف عن جودة صورنا في الوقت الراهن بالإضافة إلى ذلك التاريخ القديم المدون أسفل الصورة، فحاولت التدقيق فيها فوجدتها صورة لامرأة يبدو من معالمها أنها لفتاة في مقتبل العمر، فكانت تمتلك عينين واسعتين بنية اللون، أما ضفائرها السوداء الناعمة كالحرير فكانت منسدلة أعلى كتفيها، بينما الابتسامة

كانت غائبة عن ملامحها، أما ملابسها فكانت ملابس فلاحة بسيطة تركض خلف رزقها، إنه جلباب يميل الى اللون الأحمر منقط بأشكال غير مفهمومة في عصرنا الحالي ولكنه كان ممسكًا على خصرها وفضفاضًا من الأسفل...فحدثت نفسها قائلة:

- أين ذهبت تلك الفلاحة التي تدعى صفية؟ هل فرت هاربة مع أهل البلدة كي تحمي نفسها من لعنة عمورية؟ أم أنها قد وافتها المنية؟ فقلبت الصورة على الوجه الآخر بعد أن أطلقت زفير الغضب فوجدت أنه مكتوب عليها جمل بسيطة، يبدو أن هذه المرأة هي التي قد كتبتها، وهذا واضح من خطها المتقطع الذي يدل على أنها نالت قسطًا بسيطًا من التعليم يكاد لا يتعدى المرحلة الإبتدائية ثم دققت بنظرها محاولة أن تقرأ ما هو مكتوب ولكنها انتفضت من مكانها فوقع الملف بأكمله أرضًا على إثر صراخ أخيها آسر...فأردفت بصوت متقطع حزين:

- ماذا حدث؟!!

فقال فازعًا:

- ماجد حرارته في تزايد ويتمتم بكلام غير مفهوم!!

* * * *

العاصفة لم تهدأ بل في تزايد مستمر، وكأنها تريد تذكيري بمثل هذا اليوم الذي حدثت فيه الفاجعة، الفاجعة التي شاهدتها بعيني منذ سنوات عديدة وتشبثت مكاني صامتة، غير قادرة حتى على الصراخ أو الدفاع عن صديقتي التي قتلت غدرًا على يد الحبيب العاشق الذي عشقته منذ الوهلة الأولى، على الرغم بمعرفتها بماضيه المشين المقزز الذي يشمئز منه

أي كائن حي لأنه انتهك المحرمات وفعل أشياءً حرمها الله، ولكنها قد غلبها الهوى مع وسوسة الشيطان لها.

منذ سنوات خرجت من عمورية اضطرارًا متناسية ما حدث من أجل طفليها الصغيرين، فألقيت الماضي خلف ظهري وردمت عليه أنا وزوجي مع أن فؤادي ينزف آلامًا منصهرة لكي نحيا بهما حياة طبيعية، حياة من أجلهما ومن أجلنا أيضًا، لقد حُرمنا من نعمة إنجاب الأطفال لسنوات طويلة، سنوات مرت علينا وكأنها دهور مديدة، فكانا هما أولادنا وهما أيضًا حياتنا التي أنارت بوجودهما بيننا، فبالتالي لا بد من المحافظة عليهما لأنهما هما الأمل الذي نحيا من أجله.

خرجت من عمورية حقًا ولكن الآن اضطررت للعودة إليها من جديد بعد أن تركتها وتركت كل شيء فيها، ذكرياتي معها في طفولتنا، في شبابنا، في أفراحنا وأحزاننا التي كنا نتقاسمها سويًا، تركت جسدها الذي شاهدته يضيع أمام عيني غدرًا وظلمًا وعدوانًا دون أن أثور وأعلن تذمري وعصياني أمام هذا الكائن الغريب الذي لا يمكن تصنيفه وتحديد فصيلته، هل هو من طائفة البشر؟؟ أم من طائفة الحيوانات المستذئبة التي نشاهدها في الأفلام الأجنبية المرعبة؟ أعلم أنني مخطئة جدًا في حقها، ولكنني نادمة أشد الندم على رد فعلي السلبي الذي أخذته عندما رأيتها تضيع مني هباءً منثورًا، ولكن كيف يمكنني التصرف أو حتى الدفاع عنها وأنا ضعيفة مقيدة لا يوجد معي غير رب العالمين وزوجي فقط؟ فانصعت لكلام زوجي وهو الفرار هربًا من تلك البلدة الملعونة التي ارتوت بالدماء، فحاولت إقناعة بالبقاء والثأر من أجل دمائها التي أُهدرت بسكين بارد، ولكنه رفض رفضًا باتًا ولا بد من الرحيل،

فرحلنا تاركين ديارنا وأرضنا وكل شيء كنا نمتلكه من أجل إحياء الذكرى التي تركتها لنا، الذكرى التي أتت الآن ونشبت في الماضي وكأنها تريد البحث عن ذاتها وهويتها المفقودة التي من داخلها متيقنة بأنها حاملة لهوية غير هويتها الحقيقية.

كانت تناديني بأمي في كل مكان وزمان، ولكن صور الماضي الضبابية كانت تلاحقها في أحلامها ويقظتها، فجعلت منها صاحبة الشخصية المزدوجة المهتزة ومع ذلك لا تريد الإفصاح لي بذلك؛ لأنها تعلم علم اليقين أنه لا يوجد عندي إجابات حاضرة أو ردود لعثرات الماضي المفتقرة، فكانت في داخلها تحتفظ بأحداث الماضي التي عاصرتها في طفولتها، ولكن الماضي كان بالنسبة لها مشوشًا، مجرد أحلام فقط أو صور لأناس عاشت معهم فترة قصيرة من حياتها ثم اختفوا فجأة ولا تعلم أين هما؟ أو من يكونون؟

حاولت تعويضها هي وأخاها بحناني وعطفي واحتوائهما والنهوض بهما ناحية المستقبل، ولكن المستقبل أصبح تائهًا عنا الآن لأن ماضيهما المفقود سوف يفتح أمام أعينهما من جديد؟ وأنا هنا عاجزة مقيدة تحت قطرات المطر الصاخبة، أنظر في ساعتي بين الفينة والأخرى وبين الطريق المتعرج الذي لا ينتهي بعد.

أنا الآن أسابق الزمن ولا بد من الفوز والانتصار عليه حتى لا ينكشف المستور الذي أخفيناه طيلة السنوات الماضية، وفجأة شهقتُ بعد أن نظرت لزوجي الجالس جواري وهو يحاول السيطرة على السيارة بعد أن أصدرت صوتًا مفزعًا فجعلت شعري يشيب.

-١٣-

لقد انتزعت الرحمة من قلبه عندما طردها من شقته عنوة في ظلمات ليل الشتاء القارصة، وذلك لأنها غير قادرة على سداد إيجار تلك الشقة الحالكة، فظلت تتوسل له بأن يتركها تلك الليلة فقط وعند حلول الصباح سوف تذهب من منزله دون رجعة، ولكنه أبى أن تظل ساعة واحدة في ملكه الذي افترشته بنحيبها وبكيانها الفاني بعدما رحلت عنها عائلتها، فتحركت ببطء حاملة حقيبتها الصغيرة التي لا يوجد داخلها سوى ملابس بسيطة تمتلكها، ثم سارت في شوارع البلدة دون هدف أو عنوان تلجأ إليه مفكرة في وضعها الحالي الذي أصبح متدنيًا، هل تحيا بحياتها من جديد أم تذهب لهم كي تستأنس بهم؟ وفجأة أتت سيارة عابرة أمامها وصدمتها وعلى إثرها انبطحت أرضًا.

وعندما أفاقت من صدمتها، وجدت نفسها في مشفى حكومي ومعلق لها الأجهزة الطبية وأمامها شخص غريب لا تعلمه يجلس على كرسي بالجوار من سريرها في ابتسامة مشرقة على ملامحه، فحينما وجدها قد أفاقت أردف قائلًا:

- الحمد لله على سلامتك يا مايا.

فارتسمت الدهشة على ملامحها مرتين، المرة الأولى من يكون هذا الشخص وكيف عرفها؟

والثانية أين هي الآن ولماذا أتت وماذا حدث لها؟؟ ... فأردفت متسائلة:

- أين أنا؟ وماذا حدث لي؟ ومن أنت؟ ومن الذي أخبرك باسمي؟!!

فحدثها قائلًا:

- سأجاوب على أسئلتك ولكن رجاءً منكِ أن تهدأي...أنتِ لا زلتِ تحت الرعاية الطبية.

فنظرت له بوجه خالي...بينما هو أكمل حديثه قائلًا:

- أنتِ الآن تتلقين العلاج بمشفى البلدة...أما ماذا حدث؟ فأنا الذي صدمتك بالتاكسي الخاص بي ولكن يشهد الله بأنني لم أقصد أن أسبب لكِ الضرر مطلقًا...أنتِ التي ظهرتِ أمامي فجأة فأصبحت عاجزًا عن التحكم في إيقاف السيارة...أما من أخبرني باسمك...هويتك الشخصية التي توجد داخل حقيبتك.

ثم تابع كلامه وقال:

- أرجو منكِ المعذرة لو فتحت حقيبتك دون استئذان...ولكن حينما سألوني عن اسمك الذي لا أعلمه اضطررت آسفًا أن أفتح الحقيبة كي أحصل على شيء يخبرني بشخصك.

ما زالت النظرات الخالية مرسومة على ملامحها...فأكمل كلامه متحدثًا بابتسامة مشرقة:

- أما من أنا؟؟ فأنا ماجد...أدعى ماجد.

- فتحدثت في تعب:
- لا داعِ للاعتذار سيدي...أنا المخطئة وليس أنت...أنا لم أنتبه للطريق جيدًا...شرودي وحزني هو من أتى بي إلى هنا.
- لا داعِ للحديث طالما أنكِ متعبة...رجاءً ارتاحي قليلًا وأنا سوف أذهب لإحضار الطبيب كي يطمئن عليكِ.

فقام من مجلسه وتوجه إلى الطبيب، بينما هي حائرة مفكرة في مصيرها المفقود، وبعد دقائق بسيطة أتى الطبيب وتفحص حالتها ثم تحدث قائلًا:

- الحمد لله يبدو أنها استعادت صحتها كليًا ويمكنها الخروج غدًا بإذن الله.

فظهر الفزع على ملامحها ثم قالت:

- الخروج غدًا!!

فانتبه ماجد لمعالم وجهها التي تغيرت فجأة ثم أعاد نظره للطبيب قائلًا:

- حسنًا أيها الطبيب...أبلغك شكري لمجهودك العظيم الذي بذلته حتى تسترد عافيتها.
- لا داعِ لشكري...إنه واجبي.

ثم انصرف الطبيب، بينما هي فكانت دموعها تسيل على وجنتيها دون مقاومة منها، فانتبه لها ماجد متأثرًا ثم قال:

- ماذا حدث لكي تبكي؟؟ ولماذا فزعتِ حينما علمتِ بأنكِ ستخرجين غدًا؟

ثم أكمل:

- هل حدث معكِ شيء؟؟

فحاولت تجفيف دموعها بكفيها ثم حاولت التصنع بالقوة أمامه كي لا تثير شفقته وقالت:

- لا يوجد شيء...إنها آثار الصدمة لا أكثر.

فنظر لها نظرات شك وقلق، قلبه يحدثه بأنها تخبأ بداخلها شيئًا كبيرًا لا تريد الإفصاح عنه.

* * * *

قبيل غروب شمس يوم الغد خرجت من المشفى مثلما قال لها الطبيب ومعها حقيبتها التي لا تملك غيرها حاليًا، ثم هبطت درجات سلم المشفى في تخاذل شديد، شاردة في أحزانها ودموعها ما زالت في طريقها المعلوم، لا تعرف أين تذهب؟ ولمن تلجأ كي يخفف عنها حزنها على وفاة عائلتها؟ فهبطت درجات السلم ووصلت إلى الشارع الرئيسي وسارت فيه ولا تعلم أين قدمها تقودها؟ وفجأة رمقت بنظرها بعد أن سمعت شخصًا يهتف باسمها، فنظرت في اتجاه الصوت فوجدته هو بداخل سيارته والابتسامة المشرقة التي تحمل في ثناياها النقاء والطيبة مرتسمة على شفتيه، فأحست بفرحة تغمر قلبها ثم حاولت تجفيف دموعها، بينما هو ترجل من سيارته واقترب منها...فخرجت من قلبها ابتسامة محت كل أحزانها الساكنة ثم قالت:

- ماجد!

فحدثها مبررًا:

- أسف على تأخري...كنت أود الحضور مبكرًا من أجل توصيلك ولكن أتت إليَّ توصيلة ولا يمكنني الاعتذار عنها؛ لأنكِ تعلمين أنني أركض خلف رزقي.

فاختفت الابتسامة سريعًا وكسا الحزن مكانها ثم قالت:
- لا بأس...ولكن لا داعٍ لتعطيلك...لقد كنت ذاهبة.
- سيدتي مايا لا يوجد تعطيل...هذا واجبي...أنا الذي صدمتك بسيارتي ولا بد من التكفير عن خطئي الذي فعلته.
فنظرت له في حزن متملك من كيانها واكتفت بصمتها، بينما تحدث وقال:
- سيدتي بماذا تفكرين؟ هل حدث شيء؟ هل وجودي أزعجك؟
فخرجت عن صمتها ولكن الحزن ما زال مكانه ثم قالت:
- لا.
- حسنًا ... هيا بنا.
فتحركت معه في استسلام دون أن تعلم إلى أين يذهب بها؟
كان يقود سيارته بمهارة وذكاء متخطيًا زحام الطريق الذي لم ينتهي بعد، بينما هي فكانت ناظرة عبر زجاج النافذة، شاردة وكأنها تتأمل تلك المدينة التي أخذت منها كل شيء كان مصدر أمان لها ... فقطع شرودها قائلًا:
- أراكِ تحدقين في الطريق وكأنك أول مرة تمرين عليه.
فنظرت له قائلة:
- لا ... لقد مررت عليه كثيرًا ولكن يبدو أنها آخر مرة أراه فيها.
- يبدو أنك قررت السفر وترك مدينتنا.
فقالت في شجن:
- يبدو كذلك.
- أتمنى لكِ السلامة في أي مكان تذهبين إليه.
- شكرًا لك.

- إلى أي مكان تذهبين سيدتي مايا؟

فدار في رأسها التفكير لثوانٍ معدودة ثم أردفت:

- محطة القطار.

- حسنًا.

فتحدثت في داخلها:

- لا بد من ترك هذه المدينة والبحث عن مدينة أخرى أمكث بها، ولكن كيف وأنا لا مآوى لي ولا يوجد معي مال وفير لاستئجارغرفة أمكث فيها؟ يا إلهي دبر لي حالي ولا تتركني هكذا ضائعة بلا وطن.

فصف سيارته أمام محطة قطار البلدة وترجّل منها ثم توجه إلى مؤخرة السيارة، فترجلت هي الأخرى وأغلقت الباب خلفها، ثم نظرت حولها في توتر مرتسم على معالم وجهها...فتقدم إليها حاملًا حقيبتها ثم أردف:

- هيا نذهب للداخل.

فقالت في توتر:

- لا لا...عليك الذهاب لعملك وأنا سأدلف لحالي.

- لا يصح سيدتي...لا بد من توصيلك للداخل والاطمئنان عليكِ.

فنظرت إليه فوجدت فيه الكرم والطيبة، ثم انصاعت لطلبه وهي مترددة وتحركت معه لداخل محطة القطار وهو حامل لحقيبتها، ثم استوقفته قائلة:

- شكرًا لك يا ماجد...عليك الذهاب الآن...سأكمل طريقي بمفردي.

فحدثها بعفويته التي أظهرت بريق شخصيته وقال:

- بالفعل سوف أنصرف، ولكن بعد أن أحصل على تذكرة القطار وأطمئن على صعودك القطار.

- فأردفت في تردد وقلق:

- ولكن...

- دعينا نذهب.

فاستسلمت لطلبه مرة أخرى وذهبت معه متوجهين إلى نافذة التذاكر، فحدث موظف السكة الحديد قائلًا:

- سيدي من فضلك أعطني تذكرة لمدينة ...

فأدار نظره إليها متسائلًا:

- سيدتي ... لأي مدينة ستذهبين؟

فدار في رأسها التفكير لثانية ثم قالت داخلها:

- يا ربي لا أعلم لأي مدينة أذهب...إنني في مأزق.

وإذ بشاب تحدث مع الموظف المختص بقطع التذاكر وقال:

- من فضلك أعطني تذكرة لمدينة نيسايا.

فأردفت قائلة:

- نيسايا...مدينة نيسايا.

- حسنًا.

فتقدم إلى الموظف ثانية وتحدث إليه:

- من فضلك سيدي أعطني تذكرة لمدينة نيسايا.

فأعطى له الموظف تذكرة القطار بعد أن دفع ثمنها ثم همّا في الانصراف إلى أن تراجع

للموظف مرة أخرى وحدثه:

- سيدي متي سيكون الرحيل؟

فأجابه وهو يعطي للشخص المجاور له باقي نقوده وقال:

- بعد ساعة من الآن.

- حسنًا سيدي.

فغادرا نافذة التذاكر حاملًا حقيبتها، بينما هي استوقفته في ساحة محطة القطار قائلة:

- سيدي لحظة من فضلك.

ثم أعطت له ثمن التذكرة وتحدثت:

- تفضل سيدي ثمن التذكرة.

- ولما تعطيني ثمنها؟ وأنا في المقابل لا أريد أي نقود.

- سيدي رجاءً منك فلتتفضل ثمنها.

- متأسف جدًا سيدتي لا يمكنني قبول هذا المبلغ.

- ولكن!!!

- سيدتي رجاءً منكِ ضعي المبلغ في حقيبتك وهيا بنا نذهب لانتظار القطار.

فأومأت برأسها إيجابًا والحزن متملك منها، ثم انصرفت معه حتى توجها إلى موضع القطارات فاستوقف شابًا وحدثه:

- من فضلك...القطار الذي سيذهب لمدينة نيسايا على أي رصيف يوجد؟

- رصيف رقم ثلاثة، ولكنه سوف يغادر المحطة بعد ساعة من الآن.

- حسنًا.

ثم تحرك معها إلى رصيف رقم ثلاثة وبعد دقائق معدودة وصلا للرصيف المحدد، فالتفت حوله باحثًا عن مكان مكوث القطار...ثم حدثها:

- سيدتي يبدو أن القطار لم يأتِ...علينا الانتظار لحين قدومه ورجاءً منكِ لا تتحدثي وتقولي لي بأن أذهب لمحل عملي...سأنتظر لحين قدومه والاطمئنان عليكِ عند المغادرة.

فاكتفت بابتسامة كإجابة لرده... بينما هو تابع كلامه وقال:

- سيدتي انتظري على هذه الأريكة لحين قدومي.

- حسنًا.

فانصرف وتركها بينما هي جلست على الأريكة مثلما حدثها، فأتى إليها بعد حوالي عشر دقائق ومعه حقيبة بلاستيكية، ثم جلس بجوارها ولكن بينهما مسافة بسيطة، ثم فتح الحقيبة البلاستيكية وأعطى لها مجموعة من الطعام الجاف.

- تفضلي سيدتي لقد أتيت بالعشاء.

- شكرًا سيدي...لست بحاجة للطعام الآن.

- مايا تفضلي الطعام مني حتى يكون بيننا عيش وملح.

فنظرت له فأحست بإحساس غريب اجتاح كيانها، لا تعرف ما هو ولكن عندما تنظر له تطمئن وتعتقد بأن الدنيا لا زلت بخير.

فقطع نظراتها قائلًا:

- سيدتي هل موضوع الطعام صعب ويشغل تفكيرك لهذا الحد؟

فخرجت منها ابتسامة على عفوية حديثه التي تشعرها بالسعادة، فبادلها نفس الابتسامة وعلى إثرها أخذت منه الطعام وتناولته في خجل.

– سيدتي أنا مثل أخيكِ الأكبر... تناولي الطعام بحرية ولا داعِ للخجل مني.

– حسنًا سيدي.

ثم تناولت الطعام، وأثناء تناولها نظرت له فوجدت في ملامحه الطيبة والبراءة الواضحة حتى في حديثه معها...فحدثت نفسها قائلة:

– لا أعلم لماذا قلبي مطمئن لهذا الحد وأنا جالسة بجوارك؟ ولا أعرف لماذا تناسيت جراح قلبي وأهواله المريرة التي حملتها منذ فترة وأنا أنظر إليك الآن؟ ملامحك البريئة جعلتني منغمسة بين تفاصيلها الحانية وعلى إثرها قد سكن الاطمئنان بين ضلوعي.

فقطع صمتها قائلًا:

– سيدتي لا بد من تناول طعامك حتى تشربي هذا المشروب ليقوم بتدفئتك.

ثم نظرت جوارها فوجدت بينهما على الأريكة كوبين من الشاي، فظهرت على ملامحها ابتسامة شكر وامتنان؛ لأنها بالفعل كانت تتمنى مثل هذا الكوب الساخن ليدفء جسدها الذي أصبح على وشك تملك البرودة منه.

* * * *

مرت الدقائق عليهما في انتظارالقطار وكأنها ثوانٍ معدودة، حاول ماجد فيها التحدث معها لكسر ملل الانتظار في أمور المدينة الحالية والتحدث في أمور الدين كالصلاة والتقرب إلى الله ومساعدة الغير وما شابه ذلك.
صوته المفزع قد أعلن عن قدومه، فهمَّ الركاب إليه مسرعين بينما هي الحزن تملك من ملامحها ثانية وأختفت ضحكاتها التي وجدتها في الحديث معه... فتحدث وقال:
– عزيزتي مايا لقد أتى القطار...لا بد من التوجه إليه قبل الازدحام.
فأومأت برأسها إيجابًا بعد أن سكن الحزن داخلها، ثم قامت من مجلسها في تخاذل شديد وهي من داخلها لا تريد المغادرة بل تتمنى أن تظل معه لأطول فترة ممكنة، تتمنى أن تظل مع ذلك الشخص الذي جعلها تشعر بأن الدنيا ما زالت بخير ولا بد من العيش بها وتحمل مصاعبها مهما كانت، فحمل حقيبتها وتحرك معها في اتجاه القطار، بينما هي تحاول أن تخفي دموعها التي على وشك الانفجار، لقد تملك الخوف والضعف من كيانها فأصبحت كطفل باكي يبحث عن حضن أمه كي يختبأ داخله، فظلت تنظر له بين الفينة والأخرى متطلعة معالم وجهه البريئة التي توحي بالسعادة والأمل، فبادلها تلك النظرات البسيطة مع ابتسامته المرسومة على ملامحه التي لم تفارقه قط حينما قابلها صدفة، فسقطت منها عبرة حزينة على وجنتيها فتركتها تسري وكأنها سمحت لها كي تخفف عما يحمله قلبها.
وصلا إلى القطار وكأنه في انتظارها لكي يفرق بينها وبين حلم اليقظة الذي يسير معها الآن، هذا الحلم الذي جعلها تشعر بالأمان سوف يندثر

من أمامها خلال دقائق بسيطة وستودعه لكي تبدأ في رحلة من العذاب والفناء، فصعدت إلى باب القطار ثم تحركت بين مقاعده وهي ناظرة له خارج القطار عبر نافذته المفتوحة على مصراعيها، إنه يسير بمحاذاتها حاملًا لحقيبتها، الدموع أعلنت عن موعدها بل تدفقت وجعلت عيونها الجذابة تتحول للون الأحمر، أما هو فطاقة أمل مرسومة على ملامحه وكأن الدنيا أعطت له كل شيء.

قد وصلت إلى المقعد المخصص لها ثم جلست بجوار النافذة ناظرة إليه وهو يعطي لها حقيبتها عبر النافذة، فحاولت تجفيف دموعها التي تركت آثارها على ملامحها التي كساها الحزن والوهن ثم أخذتها منه ووضعتها جوارها، فسالت دموعها مرة أخرى أمامه دون أدنى محاولة لمنعها.

فأردف في شجن قائلًا:

- مايا ... لما تبكين؟

فحاولت تجفيفها مرة أخرى ثم أردفت:

- لا شيء...لا شيء.

فازداد الشك داخله ثم تحدث:

- هل حدث شيء؟؟!! من فضلكِ أخبريني.

- لا شيء يا ماجد...لا شيء...تفضل أنت بالانصراف...القطار سوف يهم في الرحيل الآن.

فتحدثت في داخلها قائلة:

- بماذا أخبرك يا ماجد؟ ماذا أقول لك؟ أقول لك بأنني ذاهبة لمدينة أخرى لا أعلمها؟؟ ... أخبرك بأنني فتاة ضائعة ليس لها مأوى ولا

معارف ولا عائلة تحتضنها...أخبرك وأقول لك بأنني فتاةٌ لعب القدر معها لعبته وأخذ منها كل أحلامها وحياتها وترك لها الحزن والضعف واليأس...ماذا أقول لك؟ أقول لك بأنك طوق النجاة لي وأتمنى أن تخلصني وتنتشلني مما سوف يؤول بي...أقول لك بأنك شخص تحمل في طياتك الاحترام والأخلاق النبيلة التي فقدت في زمننا هذا...أقول لك بأنني أحسست إحساس تملك مني...لا أعرف ما هو؟ ولكنه أشبه بالتعلق بشيء غالي خشية من فقدانه... أتمنى أن أخبرك بأنني أريد الاختباء بين أحضانك وأبكي بشدة لعلك تكون رحيمًا بي وتشعر بما يحتويه قلبي... ماذا أقول لك يا ماجد؟ ووقت الفراق قد حان... سويعات الفرح التي زارت فؤادي سوف تختفي خلال دقائق معدودة ويحل مكانها الأحزان المتدفقة التي لا نهاية لها.

فأفاقت من شرودها على صوت صفارة القطار التي اخترقت مسامعها وكيانها أيضًا، فلقد هم القطار في التحرك، ولكن أثناء إقلاعه اقتلع معه قلبها الذي نبض لفترة بسيطة وكان هو السبب في ذلك، ظلت تنظر إليه نظرات حزينة وعلى إثرها اختفت تلك الابتسامة وتملك الحزن من ملامحه، فرفع ذراعه وودعها الوادع الأخيرالذي ترك أثرًا سلبيًا عليه، وعندما اختفى القطار عن مرمى بصره استدار بجسده للأمام كي يغادر، ولكن الدموع كانت مترقرقة في عيونه الجذابة، إنه يخشى الفراق والوداع مهما كانت منزلة ذلك الشخص بداخله.

ـ ١٤ ـ

وأثناء تحركه للمغادرة دق هاتفه المحمول، فأخذه من جيب بنطاله كي يجيب على المتصل، وفجأة تملكت الدهشة ملامحه وغطى عليه الحزن المخيم داخله، فنظر أمامه فوجد تذكرة القطار ما زالت معه، حديثه معها ألهاه ولم يتذكر إعطائها فور مغادرتها، فبدا عليه الفزع ثم استدار بجسده للخلف على أمل عدم رحيل القطار أو اللحاق به، ولكن تشبثت قدماه وتنفس الصعداء ثم عاودت الابتسامة له من جديد وكأنه وجد ضالته المفقودة، لقد وجدها أمامه حاملة لحقيبتها على بعد أمتار بسيطة، فظهرت منه ابتسامة عريضة ممزوجة بدموع الفرح وكأن روحه قد عادت إليه من جديد، ثم أردف بصوت مرتفع بعض الشيء قائلًا:

- مااااياا

فنظرت له بعيونها المدمعة ثم انفرجت أسارير وجهها على إثر رؤيته ثانية وهو يلوح لها بذراعيه، لقد نسيت كل الصعاب التي مرت بها؛ لأن وجوده أمامها كفيل على زرع البهجة والاطمئنان داخلها، لقد عادت إليها روحها التي انسحبت منها من جديد، وبدون تفكير منها ركضت

إليه مسرعة، فركض هو الآخر كي يقابلها، وحين التقي بها ارتمت بين أحضانه وتشبثت في عنقه وكأنها خائفة أن يضيع منها ثم انهارت في البكاء، أما هو فعيونه مدمعة من فرحة اللقاء ثانية...لا يعرف لما تمنى أن يقابلها؟ ولما شغلت تفكيره فجأة؟ ولماذا أحس بالوحدة حينما غادرت؟ فحاول أن يهدأ من روعها قائلًا:

– عزيزتي مايا من فضلك اهدأي ... أنا بجوارك فلا داعِ للبكاء.

ثم انسحبت من أحضانه وتطلعت إلى ملامحه فوجدت عيونه هو الآخر مدمعة ثم أردفت قائلة:

– عزيزي ماجد لا تبكِ ... أنا بجوارك.

وفجأة خرجت منه ضحكة رنانة وعلى إثرها ضحكت هي الأخرى، وتحولت لحظات الحزن الساكنة إلى سعادة مؤقتة وياليتها تدوم بينهما لآخر العمر.

* * * *

جلس معها على أريكة في محطة القطار بعد أن أحضر لها العصائر المتنوعة حتى تهدأ من أعصابها التي تراخت...ثم حدثها قائلًا:

– مايا أنا متأسف جدًا...حديثنا سويًا أنساني إعطاءك تذكرة القطار وبسبب هذا لم تذهبي إلى مدينة نيسايا التي في انتظارك.

– لا ينبغي عليك الاعتذار يا ماجد لأنني بالفعل لا أريد الذهاب إلى نيسايا...ونسيان التذكرة معك كان دليلًا كافيًا على بقائي في هذه البلدة.

فحدثها متسائلًا:

– ولما لا تذهبين إليها وأنتِ عندما خرجتِ من المشفى قررتِ الذهاب إليها؟

فأجابته في شجن وقلة حيلة قائلة:

– أنا لم أقرر الذهاب إليها أو الذهاب لأي مكان آخر.

– مايا صوتك الحزين ومعالم وجهك البائسة تدل على وجود شيء وأنتِ لا تريدين إخباري بذلك.

– لا أعلم ماذا أقول؟ حقًا لا أعلم.

– قولي ما بداخلك وأنا سأنصت لكِ ... قلبي يحدثني أن شيئًا ما حدث معك ولهذا ارتميتِ بين أحضاني وكأنني والدك الذي كنتِ تعانقينه.

فخانتها دموعها وسالت على وجنتيها من جديد لأنها بالفعل أحست أن ماجد يحمل الطيبة والخير بداخله ولهذا أحس بعناقها، هي تعلم أنه لا يجوز شرعًا عناق أي شخص أو مصافحته ولكنها كانت مثلها مثل الغريق الذي يعافر مع الأمواج كي ينجو بحياته ويصل للشاطيء وماجد كان لها شاطيء الحياة الذي لا بد من الوصول إليه.

فقصت عليه حكايتها من البداية ثم وفاة عائلتها ثم طردها من قبل صاحب المنزل في ظلمات الليل ثم اصطدامها بسيارته التي كانت بداية أريحية مستساغة داخل فؤادها، فظل ينصت لها دون مقاطعة وكأنه يريدها أن تخرج الطاقة السلبية التي بداخلها، فامتلئت عيونه بالدموع تأثرًا بحديثها الذي أرهقه جسديًا ونفسيًا...ثم أردف بداخله:

– يجب أن أساعدها وأمد يد العون لها...يجب أن أحميها من أهوال الشارع وكوارثه غير المتناهية...يجب أن أحافظ عليكِ يا مايا؛ لأنك

إنسانة تستحقين العطف والشفقة وهذا ما شاهدته على بنيانك الضعيف...ولكن كيف أساعدها؟ إلى أين أذهب بها الآن؟ لا توجد لي عائلة في هذه البلدة كي أجعلها تذهب إليهم؟ لا يوجد مكان تذهب إليه غير شقتي وهذا لا يجوز لأنني أمكث فيها بمفردي...ماذا أفعل يا ربي؟ ماذا أفعل؟؟ ثم أفاق من شروده وحدثها قائلًا:

- مايا أنا معك ولن أتركك أبدًا...ويشهد ربي أن أكون لكِ أخًا أكبر يحافظ عليكِ ويرعاكِ. فحدثته في شجن:

- ولكن ما ذنبك يا ماجد أن تحمل هم فتاة غريبة لا تمثل لك شيئًا؟

- مايا أنتِ لستِ غريبة عني...إحساسي الذي ينبض بداخلي الآن يؤكد لي بأنك لستِ غريبة عني بل أعرفك حق المعرفة وأنك مسئولة مني.

فأخرجت زفير السعادة والطمأنينة ثم ابتسمت له، بينما هو أكمل حديثه في إصرار بعد تفكير دام للحظات بسيطة:

- مايا هيا معي.

فاحتلت الدهشة ملامحها ثم حدثته متسائلة:

- إلى أين؟!!

- اذهبي معي وأنتِ تعلمين.

فانصرفا سويًا وهي لا تدري إلى أين تذهب؟ ولكن شعور الراحة والأمان المتربع داخلها قد غطى على كل شيء فجعلها مستسلمة لأمره المفاجيء الذي لا تعلمه.

* * * *

صف سيارته أمام إحدى البنايات البسيطة التي تبدو من هيئتها أنها تجاوزت قرنًا من الزمن أو ما شابه ذلك، ثم نظر إليها وحدثها:

- مايا لقد وصلنا.

- أين؟!!

- انهضي معي وسوف تعلمين.

فنظرت له متأملة ملامح وجهه التي تدل على الجدية والإصرار، ثم شردت بذهنها لثوانٍ معدودة ثم قالت:

- حسنًا يا ماجد سوف أدلف معك لإنني على يقين تام بأنك شخص خلوق ذو شهامة ورجولة. فابتسم لها ابتسامة الاطمئنان ثم صعدت معه لإحدى البنايات في الطابق الثالث الذي لا يوجد فيه غير شقته البسيطة التي يقطن بها، وبعد أن فتح باب الشقة بمفتاحه ووضعه في جيب معطفه ثم حدثها:

- تفضلي بالدخول يا مايا.

فرمقت صالة شقته رمقة سريعة عبر بابها المفتوح، ثم أدارت نظرها إليه في تعجب، فحدثها قائلًا:

- لا تتعجبي يا مايا...فلتتفضلي وبعد ذلك أوضح لكي كل شيء.

فانصاعت لطلبه لأنها من داخلها تعلم حسن نواياه ولا تشكك فيها قدر أنملة ثم دلفت لداخل الشقة فرمقتها نظرات تأملية، فوجدتها شقة بسيطة جدًا أغراضها محدودة، في صالتها أريكتان مقابلتان لبعضهما وفي المنتصف منضدة صغيرة، وعلى اليسار مقعد متهالك حاله عدم، وفي أرض الصالة سجادة رديئة متوسطة الحجم، ثم نظرت لأقصى اليمين

فوجدت ممرًا طويلًا يبدو أنه يربط الغرف ببعضهما...فقطع نظراتها قائلًا وعلى إثرها التفتت إليه:

- أعلم أنها لا تبدو كما تظنين....ولكن هذا ما في استطاعتي.

- لا تنزعج يا ماجد ... لأنها لا تختلف كثيرًا عن الشقة التي طردت منها عنوة.

ثم ابتسمت له وعلى إثرها ابتسم هو أيضًا...ثم تحدث:

- مايا سأضطر للاستئذان حاليًا.

فتملك الفزع منها وقالت:

- إلى أين ستذهب؟؟

- لا تنزعجي اهدأي من فضلك...لا بد من رحيلي كي ترتاحي... وبمعنى أوضح لا بد من مغادرتي لأنه لا يجوز وجودنا سويًا...ديننا يحثنا على ذلك.

- ولكن يا ماجد...أين ستذهب في هذا الوقت المتأخر؟

- لا تقلقي بشأني...سأتدبر الأمر ولكن عليكِ أن ترتاحي الآن بعد عناء هذا اليوم.

فأردفت في شجن:

- حسنًا.

فهم في الانصراف ولكنه استدار بجسده ناظرًا إليها متحدثًا:

- الطعام في الثلاجة إذا لزم الأمر وأغلقي بابك عليكِ بإحكام...حفظكِ الله.

ثم غادر المكان...بينما هي أردفت في شجن:

- حفظك الله يا ماجد.

فبعد أن تركها ذهب إلى سيارته ليمكث فيها، ثم حدث نفسه في داخله قائلًا:

- ماذا ستفعل يا ماجد بعد أن أحضرتها لمنزلك؟ الأيام المقبلة كيف ستكون؟ كيف سيكون الوضع بعدما غادرت شقتك من أجل راحتها واستقرارها؟ إلى أي مكان تذهب أنت الآن؟ لا بد من نومك لبضع ساعات كي تذهب لعملك الذي ينتظرك في الصباح...لا بد من بحثك عن مكان تمكث فيه ليلتك هذه...لا بد من ذلك.

وإذ بقطرات المطر تساقطت على زجاج سيارته فأردف ساخرًا:

- لقد وجدت المكان الذي أمكث فيه ليلتي تلك بعد أن تساقطت الأمطار...سيارتي.

* * * *

أما هي فقد دلفت إلى الغرفة ووضعت حقيبتها على المنضدة المجاورة للسرير ثم أطلقت نظرة على أرجائها فحالها لا ينقص شيئًا عن حال صالة المنزل، أغراض بسيطة، ودهان باهت، ستائر بالية، ولكن ما كان يميزها عن صالة المنزل صورته المعلقة على جدارها، فتحركت في اتجاه الصورة الموجودة بجوار النافذة ودققت بنظرها في ملامحه الخالية من تعابير الحزن، لقد كانت الابتسامة مرسومة على شفتيه وكأنه شخص سعيد في حياته، ثم تحسستها بأناملها الرقيقة ناصعة البياض مثل وجهها وأردفت:

- أنك لإنسان مهذب ليس له وجود في زمن الغابة التي نتعايش فيها...والله لولا وجودك معي لكان مصيري هو الضياع أو الموت حتمًا.

ثم تحركت ناحية المنضدة وفتحت حقيبتها وأخذت منها ما يناسبها لقضاء ليلتها في هذا المنزل غير المؤلوف على عقلها، لقد ارتدت ثيابًا طويلة فضفاضة لتهدأ من برودة جسدها ثم ذهبت إلى السرير الحديدي الذي أراح جسده لفترات طويلة قبل مجيئها وألقت بجسدها الذي عانى من أحداث الزمن، وفي خلال دقائق قد ذهبت في سبات عميق.

– بينما هو نائم في سيارته مستندًا برأسه على مقدمة المقعد وقطرات المطر لا زالت تتساقط وكأنها تريد مآنسته لحين حلول الصباح.

* * * *

قد أتى الصباح حاملًا معه آمالًا جديدة وأحلامًا قيد التحقيق، فلقد غادرت سريره بعد أن احتواها في ليتلتها الماضية ثم ذهبت خارج الغرفة بعد أن فتحت بابها الذي أغلقته بإحكام مثلما قال لها، ثم توجهت إلى الصالة ونادت عليه اعتقادًا منها بأنه أتى ليلًا بعد خلودها للنوم:

– ماجد...ماجد...أأنت موجود؟

فتحركت في صالة الشقة باحثة عنه إلى أن وقع نظرها على المنضدة الصغيرة الوجودة بين الأريكتين، فلقد وجدت ورقة موضوعة عليها، فأمسكت بها في تعجب ثم حاولت قراءة محتواها:

"عزيزتي مايا...آمل أن تكوني قد ارتحتِ البارحة في منزلي المتواضع الذي لا أمتلك سواه الآن...أبلغك أنني قد أتيت في الصباح الباكر من أجل إحضار فطورك الذي وضعته في ثلاجة المطبخ ثم ذهبت إلى عملي...سيدتي مايا على الأريكة يوجد هاتف محمول وضعته من أجل الاطمئنان عليكِ إذا لزم الأمر...تمنياتي لكي بوقت ممتع في منزل ماجد المتواضع"

وبعد أن قرأت تلك الرسالة أخذت زفيرًا أخرج كل ضيق عالق بين ضلوعها، ثم تحركت للأريكة من أجل الهاتف وبالفعل وجدته مثلما قال فظهرت منها ابتسامة صافية جراء رؤية اسمه على شاشة الهاتف، إنه يتصل بها وكأن قلبه علم بموعد صحيانها وقراءتها لمحتوى الورقة ثم وقوفها أمام الهاتف الذي أفرح قلبها وجعلها طائرًا مغردًا في سماء الوطن التي كانت تبحث عنه بعد غياب عائلتها، فأمسكت بالهاتف في سعادة ثم ضغطت على زر الرد:

- صباح الخيرعزيزتي مايا.

- صباح الخير يا ماجد.

- أردت الاطمئنان عليكِ فلهذا وضعت الهاتف كي أتابع أخبارك في حين غيابي.

- شكرًا لك يا ماجد على كل شيء فعلته من أجلي ومن أجل ما تفعله معي الآن.

- لا داعِ لتشكريني يا مايا...إنكِ مثل أختي التي تمنيتها ولكن الله لم يرد بذلك.

- وأنت أخي الأكبر الذي عوضني عن غياب عائلتي التي كنت أحتاجها بجواري...والله يا ماجد لا أعلم إن لم أقابلك ماذا سيكون مصيري!

- الحمد لله لأنني قد أتيت في الوقت المناسب لأكون بجوارك.

فتنهدت ثم أردفت:

- الحمد لله.

- والآن سوف أتركك لتتناولي فطورك وأباشر أنا عملي.

- حسنًا.

- صاحبتكِ السلامة.

- صاحبتك السلامة.

ثم أغلقت المكالمة وتنفست الصعداء بعد أن وضعت الهاتف بين أحضانها، ثم ذهبت إلى المطبخ وأحضرت فطورها وبعدما تناولته كشفت عن امرأة المنزل الغائبة التي اختفت منذ فترة، فلقد ذهبت إلى الغرفتين وأتمت نظافتهما على أكمل وجه ثم توجهت إلى صالة المنزل ووضعت فيها لمساتها كصاحبة منزل بعد أن أزالت الغبار عن ستائره البالية وعن السجادة الرديئة التي تحولت إلى سجادة ذي بريق خافت، وبعد الانتهاء من نظافة الشقة وظهورها بأحسن صورة ذهبت إلى المطبخ وبدأت في إعداد الطعام من أجل عودته من عمله.

وبعد مرور سويعات بسيطة أمسكت الهاتف وأرسلت له رسالة نصية قصيرة:

- عزيزي ماجد سأنتظرك في تمام الساعة الثالثة عصرًا لتناول وجبة الغداء سويًا...عزيزتك مايا.

ثم تركت الهاتف على المنضدة في غرفته التي باتت فيها ليلة أمس ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها ثوبًا نظيفًا كي ترتديه لحين عودته.

* * * *

قد اقتربت الساعة من الثالثة عصرًا، فخرجت من الغرفة بعد أن ارتدت فستانًا فضفاضًا لونه يوحي بالفرحة والسعادة مع حجابها الذي أظهرها كأنها بدر في ليلة تمامه، وحين سمعت صوت قدومه وقفت في منتصف

الصالة والابتسامة عنوانها، وعندما فتح الباب ودلف للداخل صعق مما رآه، لقد تحول مقلب القمامة الذي يقطن فيه إلى جنة صغيرة على أرضه، ثم رمق صالة شقته رمقات الدهشة الممزوجة بالفرحة إلى أن وقع نظره على حورية من حوريات الجنة واقفة أمامه والابتسامة التي غابت عنها مرسومة على أسارير وجهها، إحساس السعادة تربع في قلبه، لأول مرة منذ أن استأجر هذه الشقة يراها هكذا ولأول مرة تدخلها فتاة غير صاحبة المنزل التي بلغت من العمر عتيًا، هذه المرأة صاحبة الحنجرة الذهبية الصاخبة التي لا تتوقف قط في بداية كل شهر حين يتأخر عن سداد الإيجار...فأردف قائلًا:

- أنتِ من فعلتِ هذا؟!!

فأومأت برأسها إيجابًا، ثم اقترب منها وتتطلع في ملامحها الرقيقة التي تشع بالبهجة في المكان وتحدث:

- ولكن كيف فعلتِ كل هذا؟

- أنسيت أنني فتاة وأعلم أمور المنزل جيدًا.

- لا أصدق أن منزلي تحول من صحراء جرداء إلى جنة خضراء...بالفعل لا أصدق.

- عزيزي ماجد لا تمدحني كثيرًا...أنا لم أفعل شيئًا بل أنت الذي فعلت.

ثم تابعت كلامها بنبرة صوت مليئة بالشجن:

- أنت الذي فعلت يا ماجد...أخذتني من أحزاني التي كانت لازمة لي إلى أفراح مؤقتة زرعتها أنت بيدك...حولتني من فتاة مهمشة ضائعة إلى

فتاة حالمة بالحياة والمستقبل...أخذتني بيدك وأسكنتني منزلك وأنت لا تعرفني من قبل وفعلت هذا وكأنك تعلمني جيدًا.

– عزيزتي مايا ما فعلته معكِ لا بد من فعله...أخلاقي وديني يحثني على ذلك.

فتحدثت قائلة:

– ولكن!!

فرد عليها قبل أن تكمل حديثها:

– مايا هل من الممكن تأجيل حديثنا بعد تناول الغداء؟ أم أنكِ لم تصنعي لي طعامًا وتدعين ذلك.

فحدثته بثقة وقالت:

– عزيزي ماجد مايا صادقة في حديثها...وسترى بعينيك الآن.

فعقد يديه أمام صدره مازحًا:

– سنرى الآن يا سيدتي...عليكِ بالذهاب من أجل تحضيرالطعام وأنا سأذهب لغسل يدي لأتذوق طعامك التي تدعينه.

فعقدت يديها هي الأخرى أمام صدرها مازحة:

– أجل يا سيدي.

ثم انصرفت من أجل تجهيز الطعام، بينما هو واقف مكانه والدمعة في عيونه على وشك السقوط ثم أردف:

– كم أنكِ نقية من داخلك يا مايا؟...أحمد الله أنني قد وقعت في طريقك لأخفف عنكِ جراحك المؤلمة.

ـ ١٥ ـ

بعد أن تناول طعامها أثنى لها بأنه لم يتذوق مثله طيلة حياته السابقة، لقد أعدت له أصنافًا متنوعة مع إشراف النظافة والديكورعلى المنضدة الصغيرة التي توجد بين الأريكتين وعلى
إثره تحدث:
- حقًا الأنثى في المنزل شيء ثمين لا يقدر...لقد حولتِ منزلي لشيء جميل مبهج وأعددتِ لي طعامًا طازجًا لم أتذوقه من قبل...شكرًا لكِ يا مايا.
- لا داعِ لتشكرني يا ماجد...لأن ما فعلته الآن هو رد فعل لما فعلته معي.
فابتسم لها ثم هم في الانصراف، فاستوقفته قائلة:
- إلى أين تذهب؟ أنت لم تكمل طعامك بعد.
- الحمد لله لقد انتهيت من تناول طعامك الطازج الذي أسرني كثيرًا...ولكن سأذهب لغسل يدي وأهم في الانصراف إلى عملي الذي في انتظاري.
فأردفت في شجن:
- حسنًا.

وحينما انتهى من غسيل يده توجه إلى باب الشقة الذي تركه مفتوحًا لأنه يعلم أنه لا يجوزغلق الباب وهما سويًا، ثم هم في الانصراف إلا أنه استدار بجسده ناظرًا إليها وتحدث:

– مايا أغلقي باب الشقة عليكِ بإحكام لأنني لن أعود اليوم بعد الانتهاء من عملي...سأبحث عن مكان أنام فيه...صاحبتكِ السلامة.

فردت عليه في شجن:

– صاحبتك السلامة.

فتركها في حزنها بعدما أغلق باب الشقة خلفه، تركها هائمة في أحزانها التي تمنت أن ترحل عنها يومًا ما، فتحدثت في داخلها قائلة:

– لا أعلم لماذا تراقص قلبي عند رؤيته؟ ولماذا حزن عندما رحل وتركني بين جدران هذه الشقة التي تمنتها يومًا ما، قلبي ضحك منذ دقائق بسيطة ثم حزن ثانية منذ ثوانٍ معدودة، لماذا قلبي يصيبه الجفاف تارة ويصيبه الارتواء تارة أخرى...لماذا أصبحت حياتي هكذا؟ لماذا؟ فقامت من مجلسها وتحركت في اتجاه النافذة ثم قامت بفتحها وألقت نظرة خارجها فوجدته أمام سيارته يفتح بابها من أجل الانصراف لعمله، وأثناء فتحه لباب سيارته رفع نظره للأعلى وكأن قلبه حدثه بأنها تتطلع إليه فلمس قلبها بابتسامته المشرقه التي لا تغيب عنه، فسقطت منها عبرة حزينة خارجة من نبع فؤادها المظلم ثم سارت إلى وجنتيها، فمررت كفيها إليها وأزالت أثرها وكأنها تحادثها وتقول لها لا مكان لكِ الآن.

وعندما فتح باب سيارته وانصرف أغلقت هي النافذة وأغلقت ستائرها جيدًا ثم تحركت في اتجاه الغرفة، ثم ألقت بنفسها على سريره الذي احتواها ليلة أمس حتى تخرج أوجاعها المدفونة داخلها.

* * * *

مر أسبوعان على إقامتها في منزله على نفس الوتيرة السابقة، كان يأتي إليها في الصباح الباكر أثناء نومها ويضع الطعام والمشتريات في مطبخه ثم ينصرف إلى عمله، وأثناء وقت الغداء كانت ترسل له رسالة نصية لحضوره لمشاركتها في الطعام، فكان يقبل عرضها مرة ويرفض مرات عديدة بحجة أنه في مكان بعيد عن المنزل ولا يستطيع المجيء، وفي الليل كان ينام في سيارته وونيسه الوحيد هي قطرات المطر التي تتساقط أحيانًا. كان ما يرهقها هو نومه خارج منزله من أجلها، قد أتت إليه لكي تخرج به من منزله الذي مكث فيه سنوات عديدة، قد أتت لكي تحطم كيان منزل أقامه هو لكي يستقر به ويشاركه وحدته، فأحست بذنب كبير تجاهه مع أنه لم يشتكِ مرة واحدة، ولكنها كانت غير راضية عن ذلك، لمتى سيستمر هذا الوضع العليل الذي أرهقها وأرهقه؟ لمتى ستستمر أنانيتها في دفن حياة شخص آخر مقابل إحياء حياتها؟ شعورها بالذنب كاد أن يمزق قلبها ويفني كيانها الذي تلاحم بوجوده جوارها، وبعد شرودها في تلك الأحزان قامت من سريرها وتحركت ناحية النافذة ثم قامت بفتحها وأطلت بنظرها ناحية سيارته أسفل العقار فوجدته ملقًا داخلها، فكسا الحزن ملامحها ثم أغلقت النافذة وأجشت في البكاء،

فهدأت رويدًا على إثر صوت أذان الفجر الذي سكن قلبها وطمأنها بأن الله موجود وعالم بحالها وسيدبر أمرها بإذنه.

* * * *

بينما هو استيقظ كعادته لتلبية نداء ربه، ثم ذهب إلى المسجد القريب من عقاره لتأدية صلاة الفجر، وعند الانتهاء من صلاته ظل يناجي ربه بأن يفرج همه وهمها وأن يساعده في المحافظة عليها والنهوض بها، ثم رفع نظره تجاه إمام المسجد الذي يأم بهم الصلاة يوميًا، فقام من موضعه وتوجه إليه وجلس بجواره بعدما ألقى عليه تحية السلام، ملامح وجهه تدل على وجود شيء بداخله وهذا ما فهمه إمام المسجد من ملامحه البائسة...فحدثه قائلًا:

- كيف حالك يا ماجد؟

فرد عليه في شجن:

- الحمد لله.

- الحمد لله دائمًا وأبدًا...ولكن معالم وجهك تدل على أنك مهموم وحزين.

- بالفعل أنا مهموم بأمر موضوع هام يحتل تفكيري.

- تحدث يا ماجد ولعلي أكون سببًا في تخفيف همومك.

فنظر إليه فوجده مصدر اطمئنان وأمل، ثم قص عليه حكايته مع مايا منذ أن قابلها حتى مكوثها في منزله.

فأردف الشيخ في حزن:

- لا حول ولا قوة إلا بالله...انظر يا ماجد ما فعلته معها هو عين الصواب وسيجازيك الله عليه إن شاء الله...ولكن لمتى سيظل وضعك ووضعها هكذا؟ لمتى ستظل مشردًا بلا مكان يأويك من أجلها؟ لا بد من توفير مكان لها تمكث فيه حتى ولو كانت غرفة بسيطة على قدر حاجتك وبذلك يمكنك العودة لمنزلك من جديد.

فأردف ماجد قائلًا:

- ولكن أنت تعلم يا شيخي أن حالتي المادية في هذه الفترة تبدو سيئة...ما يتبقى من ربحي أقوم بدفعه ضمن أقساط السيارة.

فتنهد ثم تحدث إليه:

- ماجد أنت ذكرت لي أنها فتاة يتيمة ومسكينة وتستحق العطف... أهكذا؟

- حقًا.

ثم أكمل:

- وذكرت لي أنها تحمل الطيبة داخلها وأخلاقها لا يشوبها شيء... أهكذا؟

- نعم.

ثم أكمل:

- طالما أنها على خلق ودين وتعلم الله وتؤدي صلاتها...أنا لدي اقتراح يساعدك ويساعدها.

فرد ماجد عليه بحماس قائلًا:

- تحدث يا شيخي...تحدث وأرح قلبي الذي أنهك من كثرة التفكير.

- اقتراحي هو أن تتزوجها وتكفلها.

فظهرت الدهشة على ملامحه ثم تحدث:

- أتزوجها!!

- هذا هو أنسب حل لمشكلتك...وأعلم أنك لو تزوجتها وكفلتها في منزلك وعاشرتها بالمعروف ستنال جزاءك خيرًا عند رب الكون...إنها فتاة يتيمة ووحيدة وأنت كذلك لا عائلة أو معارف في تلك البلدة فلا مانع من جمع شملكما سويًا...فكر في حديثي جيدًا يا ماجد لأن ما أحدثك به الآن هو عين العقل.

- ولكن...هل من الممكن أن تقبل بي كزوج؟

- ربما...اعرض عليها الموضوع ولعلها توافق.

- حسنًا.

فهم الإمام في الوقوف لكي يغادر ثم أردف:

- سأغادر الآن وأنت فكر في حديثي جيدًا..ولكن نصيحتي لك كأخ أكبر تزوج بها وسترى حياتك القادمة كيف ستكون.

ثم غادر الإمام وتركه لحاله حائرًا في أمرها.

* * * *

أقامت صلاتها ثم نظمت حقيبتها وتوجهت إلى صالة الشقة بعد أن ارتدت معطفها الطويل وكأنها تريد الاختباء داخله من أزمات الزمن الكاحلة، عيونها تحولت إلى اللون الأحمر من شدة بكائها، أما حزنها فقد دمرها تدميرًا مميتًا وقضى على آمالها، فاقتربت من المنضدة الموجودة بين الأريكتين وهي حاملة لحقيبتها ثم وضعت يدها في جيب معطفها

وأخذت منها ورقة مطوية، فظلت تنظر إليها نظرات ملتهبة ثم وضعتها على المنضدة واستدارت بجسدها في اتجاه باب الشقة، وعندما فتحت باب الشقة ألقت نظرة الوداع الأخيرة لهذا المنزل الذي أصبح من أحب الأماكن إلى قلبها ثم انصرفت وأغلقت الباب خلفها.. ذهبت لتواجه مصيرها لحالها بدون ماجد، ماجد الذي أصبح بالنسبة لها كنفس منتظم تحيا بأثره.

أما هو فقد عاد من المسجد بعدما أخذ قراره الذي ظل يفكر فيه دقائق معدودة، وكأنه كان يفكر فيه قبل اقتراح إمام المسجد عليه ولكنه كان يحتاج من يطمئن قلبه ويبلغه أنه على صواب، بالفعل قلبه كان يريدها من أجل الشفقة والعطف عليها ومن أجل سترها كفتاة مسلمة، ولكن في تلك المدة البسيطة التي جمعتهما سويًا دق قلبه لها وأحس إحساسًا لم يذقه من قبل، أحس بها كشيء مكمل لكيانه وزوجة صالحة تؤنس وحدته، ولكن عقله كان مترددًا بعض الشيء لأنه لا يعلمها جيدًا ولا يعلم هل ستوافق على الزواج به أم تقابل طلبه بالرفض؟ ولكن بعد أن اطمئن قلبه قرر الذهاب إليها والعرض عليها بالزواج به.

* * * *

وصل إلى عقاره البسيط الذي بدخولها إليه جعلت منه جنة وبساتين وردية، فصعد درجات السلم وتوجه إلى شقته ثم فتح بابها وهو من داخله فرح بعض الشيء ثم دلف داخلها مناديًا عليها لعلها تستيقظ وتأتي إليه، ظل يهتف باسمها مرارًا وتكرارًا لكن دون جدوى لذلك، فحدث نفسه في داخله قائلًا:

– لماذا لا تجيبني؟ هل من الممكن أن تكون ما زالت نائمة؟ ولكن أنا أعلم أنها مداومة على صلاة الفجر ولا بد من صحيانها الآن.

فارتسمت الدهشة على ملامحه، ثم تحرك في اتجاه الممر الذي يؤدي إلى الغرفتين، ثم طرق على باب الغرفة التي استوطنتها بحذر شديد ولكن لم يأتِه رد، فأعاد المحاولة مرات عديدة إلى أن حاول فتح باب الغرفة وهو متوجس خشية أن تكون نائمة فلا يصح له بالدخول عليها ولكن ليس أمامه غير ذلك، فتح الباب ثم ألقى نظرة داخلها فوجدها خالية من أثر البشر، وجدها غرفة منظمة وسرير يدل على أنه لم يلسمه جسد بشري في تلك الليلة، فتملك الفزع منه كليًا ثم خرج من الغرفة وذهب إلى الغرفة المقابلة فوجدها هي الأخرى خالية، فذهب إلى المطبخ ولكن النتيجة كانت واحدة، فجال في خاطره الدق على باب دورة المياه لعلها بالداخل ولكن النتيجة هي فشل العثور عليها، فدارت التساؤلات في عقله ثم تحرك إلى صالة الشقة مفكرًا في أمرها ثم جلس على الأريكة في استسلام وحزن مخيم على كيانه فوقع نظره على ورقة مطوية على المنضدة، فاحتلت الدهشة ملامحه عند رؤيته لتلك الورقة التي أثارت الرعب داخله، فمد زراعيه وأخذها ثم فتحها وقرأ محتواها:

– عزيزي ماجد لقد تركت منزلك منذ قليل، تركته من أجل راحتك واستقرارك، تركته من أجل الدفء الذي فقدته عندما تركت منزلك لفتاة لا تعلمها، تركته وأنا قلبي يتمزق ويعتصر ألمًا وينزف دماءً لا أقدر على إخمادها في يوم ما، لقد وجدت فيك الرجولة والشهامة والصفات الحميدة التي تجعلني أفتخر بها حتى بعد مغادرة عالمك الذي تمنيته أن

يدوم لنهاية الدهر، يعلم الله أنني وجدت فيك دفء العائلة التي حرمت منها والتي تمنيتها أن تدوم، ولكن كيف تدوم وأنا أتيت إلى عالمك وأفسدت ما فيه من أحلام وأماني أردت تحقيقها؟ عزيزي ماجد رجاءً منك لا تبحث عني، سأغادرعالمك ودنياك وأحيا بحياتي الجديدة التي لا أعلمها ولكنها ستكون حياة عنوانها التغلب على المآسي والأحزان بمفردي.

عزيزتك مـايـا

فمزق الورقة وهو في حالة من الانهيار التام ثم قام من مجلسه متوجهًا إلى باب الشقه وكأن عقله قد أصابه الجنون.

* * * *

بينما هي كانت تسير في شوارع المدينة بلا هدف، جسد يتحرك على قدميه ولكنه تارك روحه في مكانه الذي أواها ومع قلبه الذي سكن فؤادها، دموعها المتناثرة الآن حولتها إلى جماد متبلد من كل شيء يمتلكه البشر، ظلت تسير من شارع إلى شارع إلى أن ساقتها قدميها لمحطة قطار البلدة وكأن نهاية مسارها قد حانت، لا بد من الخروج من هذه البلدة التي حطمت قلبها ومزقته إربًا إربًا، هذه البلدة التي عاشت فيها حياة مظلمة عنوانها فراق الأحبة والبقاء بمفردي، صعدت درجات السلم وتوجهت داخل محطة القطار وذهبت إلى نافذة حجز التذاكر...ثم أردفت في شجن:

– من فضلك سيدي أريد تذكرة لمدينة نيسايا.

فأعطى لها التذكرة بعد أن أعطت له ثمنها، ولكنه حدثها قائلًا:
– سيدتي القطار سيغادر بعد خمسة عشر دقيقة...عليكِ الذهاب الآن من أجل انتظار الرحيل. فأومأت برأسها في استسلام ووهن، ثم انصرفت متوجهة إلى القطار.
أما هو فكان يقود سيارته بسرعة شديدة باحثًا عنها في شوارع المدينة، كان يتفحص الشوارع الخالية من البشر على أمل إيجادها جالسة في انتظاره ولكن دون جدوى، فدب اليأس في أعماق قلبه وسالت عبراته الحزينة إلا أن بصيص الأمل قد أتى إليه وأبلغه بأنها رحلت وتركت عالمك بأكمله من أجل النهوض بحياتها التي لا تعلمها.. إذن لا بد من تغيير مسارك والتوجه إلى المكان الذي من المحتمل وجودها فيه الآن.

* * * *

وعندما توجهت إلى القطار وجدته في انتظارها، فنظرت له نظرات حزينة وكأنها تبلغه بأنها آتية إليه لأنه خلاصها الوحيد للهروب من أهوال تلك البلدة، صعدت إليه ثم تحركت في ممره الطويل وجلست في مقعدها بجوار النافذة في انتظار الرحيل، لقد أصدر صفيره المزعج لبعضهم والمفرح للبعض الآخر؛ لأنه يحمل داخله من يريد لقاء الأحبة في بلدة أخرى ومن يترك مكانه هذا عنوة لأنه يحمل بداخله ذكرياته التي لا يمكنه التخلي عنها، أما هي فكانت بين الاثنين تريد المغاردة والرحيل من أجل أن تمحي أحزانها الساكنة، وتريد البقاء من أجله، ولكن ليس لها مكان في حياته التي انتهت بوجودها معه.

* * * *

بعد أن صف سيارته أمام محطة القطار فتح بابها مسرعًا، ثم توجه داخل المحطة ركضًا حتى اقترب من نافذة التذاكر وسأل الموظف عن موعد رحيل القطار المتوجه إلى مدينة نيسايا.

- سيدي أخبرني من فضلك...ما هو موعد القطار المتوجه إلى مدينة نيسايا؟

فرد عليه قائلًا:

- سيدي القطار على وشك الرحيل ويكاد أنه غادر منذ دقائق لأنني سمعت صفيره.

فنزلت الصاعقة عليه وكأن رأسه قد تهشم، ثم تدفقت دموعه وتراخت أعصابه وكأن روحه انسحبت منه، فترك الموظف راكضًا بأقصى سرعة يمتلكها متوجهًا إلى القطار، فكان يصطدم ببعض المارة أثناء ركضه فيعتذر لبعضهم ولا يبالي مرات عديدة، كل ما يشغل تفكيره هي مايا، مايا التي سترحل عنه للأبد وتتركه بعد أن ذاق لذة الحياة بوجودها وانتعش قلبه بضحكاتها التي رسمها عنوة كي يخرجها من أحزانها، وعندما وصل إلى مكان القطار وجده في بداية رحيله.. لقد تحرك أمتارًا بسيطة، فانتفض قلبه وانهارت جوارحه ثم جثى على ركبتيه مستسلمًا لآلامه وأهواله صارخًا هاتفًا باسمها:

- مايـــا ... مايـــا.

- ١٦ -

بينما هي كانت واقفة على باب القطار، كانت تلقي نظرة الوداع لمدينتها التي عاشت فيها سنوات عمرها والتي ستخرج منها الآن بعدما ذاقت فيها الآلام في كئوس متتالية، فتحرك قلبها على إثر نبرات صوته العالية التي أخترقته بسهامه المضيئة، فدققت بنظرها لمدى الصوت فوجدته على رصيف المحطة جاثيًا على ركبيته والحزن متملك منه، فانسالت عبراتها الحزينة وظهر التوتر على ملامحها، لقد أتى إليها وهي قد أعلنت الرحيل، ستغادر من أجل راحته لأنها أرهقته بهمومها وأحزانها، فتوقف عقلها وأصبحت مشتتة، إنها بالفعل تعلقت به وأصبح لها طوق النجاة ولكن وجودها معه سيسبب له المعاناة والأزمات غير المتناهية.

أصبحت في صراع حقيقي بين عقلها وقلبها، قلبها يريد منها العودة له من جديد، بينما عقلها يريدها مغادرة تلك المدينة التي قضت عليها ودمرتها تدميرًا، ولكنها حسمت أمرها وانصاعت لحديث عقلها وتحركت خطوتين كي تعبر الممر وتصل إلى مقعدها تاركة خلف ظهرها آلام الماضي الدفينة بين ثناياها، وأثناء عبورها ارتمت بجسدها على إحدى المقاعد على إثر فرامل

القطار التي أرهقت جسدها فاعتدلت من وضعها، بينما صوت الركاب بأن القطار قد تعطل أثار بداخلها تساؤلات كثيرة فأصبحت في حيرة مفرطة، هل تعطُّل القطار دليل قاطع على بقائها في هذه المدينة ورجوعها لماجد من جديد؟ هل القدر سيعيد لها حياتها الضائعة مرة أخرى؟ هل ماجد يحتاجها مثلما تحتاجه هي الآن؟ كم هائل من الأسئلة طرحها عقلها ولكن قلبها قد أتى في الوقت المناسب وأنقذها من عقلها الذي يريد إخماد مشاعر ولدت فجأة تجاهه، فقامت من مجلسها فزعة ناطقة باسمه، لقد حركها قلبها ووجهها إلى طريق الحياة، إلى طريق الأمل الذي في انتظارها، فتوجهت إلى باب القطار وهبطت درجاته في لهفة، فكادت قدماها في الانزلاق لولا تشبثها جيدًا بأطرافه، ثم قفزت أرضًا متوجهة إليه تاركة حقيبتها وكل الآمال الضائعة من أجله، بينما هو قام من موضعه بعدما علم بتعطل القطار وركض مسرعًا من أجل اللقاء بها.

ركضت مسرعة بين القضبان لكي تصل لحياتها التي تتمناها معه، لقد تيقن قلبها بأنها لا تستطيع الحياة بدونه وهو كذلك لا يتخيل حياته من دونها، تقابلا في نهاية الرصيف بعد معاناة الركوض التي أنعشت قلبيهما، تقابلا بعيون مدمعة من فرحة اللقاء، بقلب نابض باسم الحب، بحياة الأمل والهناء التي في انتظارهما...ثم أردف قائلًا:

- مـايـا...هل تقبلين الزواج بي؟

كانت أسارير وجهها تعبر عن الفرحة المكنونة داخلها، الفرحة التي ستعيشها بعدما سمعت تلك الجملة التي أحيتها من جديد وجعلتها

شخصًا آخر هائم في دنيا الحب، وبهذا قد علم حقيقة مشاعرها تجاهه وأنها موافقة على خوض الحياة معه.

* * * *

ذهبا سويًا إلى منزله والسعاده تملأ قلبيهما، الحياة قد أعادت البسمة إليهما وجعلت منهما بلابلًا مغردة، ثم فتح باب الشقة وتحدث في تمثيل مسرحي:

– زوجتي العزيزة مرحبًا بكِ في منزلي المتواضع.

فخرجت منها ابتسامة تحمل في طياتها السعادة به وبمنزله الذي أصبح جنتها التي كانت تحلم بها في يوم ما، ثم توجهت داخل الشقة، بينما هو أغلق الباب قائلًا:

– الآن يحق لي إغلاق الباب...لأنكِ أصبحتِ حلالي.

ثم توجه إليها بابتسامة مشرقة ووقف أمامها ناظرًا لعيونها الحانية، فوجد دمعة مترقرقة في عيونها ... فأردف قائلًا :

– مـايـا...لما تبكين؟!!

– أبكي من فرحتي بك...أبكي من عطفك وكرمك الذي جُدت عليا به...أبكي لأنني بالفعل أحببتك وأحببت حياتي التي رسمتها لي...أبكي لأنني من دونك لا أسوى شيئًا على الإطلاق...ماجد أنت كل عالمي فرجاءً منك لا تتركني أبدًا.

ثم ارتمت في أحضانه وكأنها تريد أن تختبأ بداخله، فحاول أن يُهدأ من روعها قائلًا:

- حبيبتي مـايـا...أنا بجوارك ولن أتركك أبدًا...ماجد لن يترك مـايـا بعد اليوم...ماجد سيظل يحيا بأثر مايا الباقي...مـايـا التي رسمت وخطت الأمل في طريق ماجد لكي يخطو عليه...فكيف له أن يتركها بعدما أصبحت حياته التي يريد أن يعيشها بكل جوارحه!

فأردفت قائلة:

- حقًا يا ماجد لن تتركني أبدًا!

- بالطبع لن أتركك...ولكن عليا الآن الخروج من المنزل.

فانسحبت من أحضانه فزعة، ناظرة إليه ثم تحدثت:

- لما؟!!

فنظر في ملامحها التي تحولت إلى الفزع الحقيقي والخوف المميت الذي من الممكن أن يودي بحياتها ثم تحدث:

- من أجل الذهاب لشراء مستلزمات زوجتي العزيزة.

فتحول الفزع إلى ابتسامة مشرقة، فبادلها نفس الابتسامة وتحدث:

- أيحق لي الذهاب الآن...أم أن زوجتي يوجد لديها اعتراض؟

- زوجتك لا يوجد لديها اعتراض...ولكن استرح بعض الوقت وبعدها يمكنك الذهاب حيثما تشاء.

فرد عليها مازحًا:

- حسنًا يا زوجتي العزيزة...سأنتظر الآن لأنني أعلم أنكِ تريدين بقائي خوفًا من عبث الأشباح التي توجد في هذا المنزل.

فابتسمت له ثم تحدثت :

- حسنًا زوجي الغالي...هذا هو مقصدي بالفعل.

فنظر لها متأملًا لكل تفاصيلها فوجد فيها الطيبة والحنان والعطف، فألقى بنفسه في أحضانها وكأنه هو من يستمد منها قوته التي كانت على وشك الضعف والتلاشي.

* * * *

مرت الأيام والشهور على حياتهما الزوجية وهما أسعد زوجين، مرت وازداد تعلق كل طرف بالطرف الآخر وأصبحا كيانًا واحدًا، مرت وازداد تقربهما لله عز وجل وجعل منهما زوجين صالحين يريدان رضا الله ورضوانه، لقد رزق الله ماجد رزقًا وفيرًا في عمله جعله يسدد ما تبقى من دينه بشأن سيارته، ثم حاول تعويض زوجته عن السنوات العجاف التي عايشتها قبل لقاءه بها، فأتى لها بكل ما تحتاجه دون طلب منها؛ لأنها بالفعل لا تريد غير وجوده جوارها، أما هي فحاولت احتواء زوجها بكل جهد تمتلكه والوقوف جواره في أفراحه وأحزانه، ولكن ما زال فؤادها يعاني من آثار الحزن بسبب عائلتها.

حاولت أن تتعايش مع واقعها ولكن صورالماضي وأحداثه تطاردها في يقظتها وفي أحلامها، كانت تتعايش أمام زوجها من أجله ولكن بعد خروجه للعمل تعيش مع أحداث الماضي التي حولتها لكائن هش مهشم لا حيلة له، لقد انهارت حالتها النفسية خاصة بعد خسارتها لوزنها الملحوظ الذي جعلها وكأنها مومياء فرعونية محنطة مر عليها آلاف السنوات، غير آلام العظام والمفاصل اللذان بأثرهما جعلاها تبدو وكأنها امرأة عجوز غير قادرة على السير أو العمل مطلقًا، أصبحت تشتكي بداخلها وتعاني بمفردها دون لفت انتباه زوجها خشية عليه من انهياره،

ولكن زوجها لاحظ التغيرات التي طرأت عليها فأثار هذا فزعه وقلقه، فسألها مرات عديدة إن كان أصابها شيء ولكن إجابتها المحفوظة التي لا تتغير أنها بخير وكل شيء على ما يرام، فانصاع لحديثها غير المقنع ولكنه استسلم اعتقادًا منه أنها ما زالت حزينة على فقدان عائلتها ولهذا هو السبب في سوء حالتها الصحية.

مرت أيام متتالية وحالتها تزداد سوءًا، آلام المفاصل والعظام وفقدان الوزن بالإضافة إلى ارتفاع درجة حراراتها التي تطاردها في ساعات ليلها المتأخرة وعلى إثرها استيقظ زوجها من نومه فزعًا، ثم وضع كفه على جبينها يتحسسه فوجد حرارتها قد بلغت ذروتها فحاول إفاقتها ثم حدثها فزعًا:

- مـايـا...ماذا أصابك؟!!

فنظرت له بعيون واهنة، فوجدت في ملامحه الفزع والقلق ثم تحدثت بصوت متعب على وشك

الاختفاء:

- لا يوجد شيء...أنا بخير.

- لا يا مـايـا أنتِ لستِ بخير...أنتِ متعبة للغاية...لا بد من الذهاب للطبيب.

- لا يا ماجد...الوقت قد تأخر...انتظر للصباح وحينها يمكنني الذهاب معك.

فتوسل لها قائلًا:

رجاءً منكِ يا حبيبتي أنصتي لحديثي...هيا بنا نذهب للطبيب كي يطمن فؤادي...قلبي لا يتحمل رؤيتكِ هكذا.

- في الصباح سأذهب للطبيب...ولكن الآن لا بد من خلودك للنوم من أجل عملك الذي ينتظرك في الصباح.

- كيف يمكنني أن أرتاح وأنا أراكِ هكذا؟ كيف يمكنني الذهاب لعملي وزوجتي تتألم؟ كيف؟

ثم تابع كلامه:

- لا بد من فعل شيء...لا بد من خفض حرارتك حتى حلول الصباح.

فنهض من سريره وركض مسرعًا خارج الغرفه متوجهًا إلى مطبخ المنزل تاركًا إياها مع مرضها وحزنها حتى أن أتى بقدر به ماء وقطعة قماش، ثم جلس بجوارها وبلل قطعة القماش من ماء القدر ثم وضعها على جبينها حتى تجف فيبللها مرة أخرى، استمر في عمل الكمادات حتى أن هدأت حرارتها بعض الشيء، ثم ذهبت في سبات عميق.

وعندما استيقظت في الصباح وجدته جالسًا بجوارها ينتظرها حتى أن تفيق، فاعتدلت من مرقدها وأسندت بجسدها على مقدمة السرير ثم أردفت قائلة:

- ماجد....أنت لم تنم طيلة الليل!!

- كيف لي أن أنام وروحي تتألم في الليل؟

فابتسمت له ابتسامة تحمل في طياتها الامتنان والشكر...بينما هو تحدث:

- كيف حالك الآن يا حبيبتي؟

- الحمد لله.

ثم وضع كفه على جبينها فوجد الحرارة قد اختفت...فتحدث:

- الحمد لله لا يوجد أثر للحرارة مطلقًا.

- الفضل يرجع لزوجي العزيز الذي سهر بجانبي طيلة الليل من أجل راحتي.

فوضع كفه على كفِها ثم تحدث:

- مـايـا لا داعِ لمثل هذا الحديث...لأن هذا واجبي وأنا مسئول عن راحتك وبرك مثلما أمرنا رسول الله.

- عليه أفضل الصلاة والسلام.

ثم تابع حديثه قائلًا:

- سأذهب لتجهيز السيارة من أجل الذهاب للطبيب...وبالمقابل تكونين قد أعددتِ نفسكِ كي نذهب.

كاد أن يقوم من مجلسه لينصرف لولا أن تشبث مكانه ناظرًا إليها بعدما تحدثت:

- حبيبي ماجد لا داعِ للطبيب...الآن أصبحت صحتي على ما يرام والفضل يعود لله ثم لك.

فأردف في شجن:

- حبيبتي مـايـا...لا بد من ذهابنا للطبيب حتى نطمئن...منذ فترة وصحتك تبدو سيئة...فقدان وزنك الملحوظ وقدرتك التي وهنت بالإضافة إلى ارتفاع حرارتك ليلة أمس...كل هذه الأعراض أليست كافية على علتك.

فربتت على كفه في ابتسامة مصطنعة كي يهدأ ويطمئن ثم تحدثت:

– كل هذه الأعراض دليل قوي على علتي ولكن هذا أمر هين لا يستدعي القلق والتوتر...ولكن يا زوجي سأذهب معك للطبيب مثلما تريد ولكن ليس الآن.

– متى؟

– في المساء حينما تعود من عملك الذي في انتظارك.

فحدثها متسائلًا:

– ولماذا لا يكون الآن؟

لا زالت محافظة على ابتسامتها التي أرهقتها ثم تحدثت:

– لأن رزقك يناديك الآن يا ماجد ولا بد من سعيك خلفه...اذهب الآن لعملك لكي تجني مالًا وفيرًا يكفي لعلاجي وحينما تعود يمكننا الذهاب.

نظر إلى ملامحها بوجه حزين وقلب مضطرب ثم أومأ برأسه قائلًا:

– حسنًا...قبيل المغرب سنذهب.

ثم قام من مجلسه وغادر، بينما هي أخفت ابتسامتها المصطنعة وسقطت منها العبرة الحزينة التي كانت على وشك السقوط أمامه لولا سيطرتها عليها.

* * * *

فذهب إلى عمله مثلما قالت له ولكن قلبه حزين عليها ومضطرب بعض الشيء، ينتابه شعور الخوف والفزع من تعبها المفاجئ الذي أرهقها وحولها من جبل شاهق إلى جبل مفتت بأثر الديناميت وعلى أثره تناثرت أجزاءه.

صف سيارته على إثر إغلاق إشارة المرور فشرد بذهنه في حبيبته التي تتألم ويتألم معها، فظل يناجي ربه في داخله أن يعفو عنها ويحميها من كل مكروه، فانتهى من مناجاة ربه على صوت ممزوج بالشجن اخترق مسامعه، فنظر لمصدر الصوت فوجدها امرأة عجوز خيم الزمن على ملامحها ومعها طفلة تحملها وكأنها طفل رضيع ولكن من هيئتها تبدو أنها في الرابعة من عمرها....فحدثته العجوز قائلة:

– من فضلك سيدي أريد الذهاب إلى مشفى البلدة...طفلتي مريضة ولا بد من إنقاذها.

– حسنًا يا أمي.

فقام بفتح بابه وترجل من سيارته مسرعًا قبل فتح الإشارة من جديد ثم توجه إليها وحمل منها الطفلة كي تركب، فجلست على المقعد الأمامي ثم أعطى لها الطفلة فأجلستها بجوارها مسندة على صدرها، ثم أغلق الباب وركض مسرعًا وتوجه إلى بابه حتى ينصرف قبل إغلاق الإشارة وتعطل الطريق، فاعتذر من السائق الذي يليه على إثر استيائه وغضبه، ثم انصرف بالسيارة.

فحدثته في صوت مختنق:

– أعتذر منك سيدي لأنني السبب في تعطيل الطريق...ولكن طفلتي مريضة ولا بد من علاجها.

– لا تعتذري يا أمي...أنتِ فوق رأسي وهذا واجبي.

فنظر لها نظرة سريعة فوجد ملامحها قد كساها الحزن والدموع تتساقط من عيونها على الطفلة التي تحضنتها وكأنها جزء مكمل لها...ثم أردف في شجن:

- لماذا تبكين يا أمي؟

- لا شيء.

- أراكِ حزينة بعض الشيء والحزن خيم على ملامحك...أهذا بسبب مرض طفلتك؟

فقالت في بكاء:

- مرض حفيدتي سبب من ضمن الأسباب...ولكن ما يبكيني الآن هو مصيرها المعلوم الذي في انتظارها.

فنظر لها بوجه متعجب...بينما هي تابعت كلامها:

- حفيدتي تعاني من الربو ولا تستطيع التنفس عندما تأتي إليها الحالة إلا عن طريق البخاخ الذي يوضع في الفم...ولكن البخاخ قد نفذ ليلة أمس ولا يوجد معي مال كي أذهب لشراء بخاخ جديد...فاضطررت إلى الانتظار لحلول الصباح لكي أذهب بها إلى المشفى.

ثم احتضنت طفلتها بقوة على إثر الصفير الذي أخرجته أثناء تنفسها، فحزن ماجد على حالها فتذكر تعب زوجته الذي لا يعرف مداه.

* * * *

بينما هي كانت تقف أمام المرآة في حالة من الفزع المميت، ناظرة على أنوثتها التي بدأت في التلاشي والاختفاء، فوضعت يدها على فمها كي تكتم صرخاتها التي مزقت فؤادها على إثر ما شاهدت، لقد علمت الآن

أسباب علتها ووهنها المفرط، هذه الأسباب التي كانت سببًا في انتكاسة وفقدان أغلى شخص على قلبها، فأحست بدوار عنيف يداهم رأسها وعلى إثره ظهرت صور الماضي من جديد أمام نصب أعينها.

منذ فترة مضت كانت تقف والدتها مثلها أمام المرآة صارخة عندما رأت آثار المرض التي لا تعلمها حينها ظاهرة على ثديها، فأتت إليها ابنتها على إثر صرختها ثم اقتربت منها وحدثتها متسائلة:

- هل حدث شيء؟

ولكن عبرات أمها الحارقة كفيلة على إجابتها، ثم نظرت على ثدي أمها فصعقت لما رأت!! لا تعلم ما هذا الشيء؟ ولكنها تيقنت أن والدتها قد أصابها شيء خطير، فأفاقت من ماضيها وتيقنت أن ما أصاب والدتها قد أصابها، إنه عامل الوراثة ولا مفر منه، فجففت دموعها بكفيها ثم أعدلت هندامها وخرجت من غرفتها مسرعة ثم إلى باب الشقة الذي تركته مفتوحًا من تأثير الصاعقة التي حلت عليها.

* * * *

فحدثها ماجد قائلًا:

- رجاءً منكِ لا تبكي...حفيدتك ستصير على ما يرام...دعي ثقتك في الخالق الذي قال كن فيكون.

فردت عليه في شجن:

- ونعم بالله...ونعم بالله يا بني.

ثم ألقت بنظرها للسماء مناجية ربها شاكية له أوجاعها، إنه أحن عليها وعلى حفيدتها وعن أي شخص عاش فوق هذه الأرض...فهو الذي قال في كتابه العزيز: "ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" .

ثم صف ماجد سيارته أمام مشفى البلدة وترجل منها ثم توجه وفتح باب السيارة وحمل الطفلة بين ذراعيه وكأنه أب لها، بينما ترجلت المرأة العجوز من السيارة وهي تتبعه في حالة من الحزن، وعندما وصل إلى استقبال المشفى صعد للطابق الثاني بعدما سأل الممرضة عن الغرفة الخاصة بالجهاز التنفسي، فذهب إلى الغرفة المشار إليها ووضع الطفلة على السرير المخصص للمرضى، فأتت المرأة العجوز وهي تأخذ أنفاسها المتلاحقة من تأثير درجات السلم ثم أردفت في فزع:

- لا يوجد طبيب يعالج حفيدتي!!

- لا داعِ للقلق يا أمي.. سأذهب وآتي بالطبيب.. انتظري معها وأنا لن أتأخر.

نظرات الحزن والدموع المترقرقة في عيونها أرهقته فجعلته ينصرف مسرعًا من أجل إحضار الطبيب، بينما هي تحركت وجلست بجوارها على حافة السرير تداعب خصلات شعرها، وبعد دقائق معدودة أتى الطبيب ثم تفحص الطفلة فوجد أن حالتها سيئة للغاية، نبضات قلبها ضعيفة جدًا وتنفسها غير منتظم ثم تحدث:

- الطفلة حالتها سيئة...لا بد من وضعها تحت جهاز التنفس.

فاحتل القلق ملامحها، ثم نظرت العجوز لماجد وكأنها تريد الاطمئنان على حفيدتها من نظرات عيونه الدامعة، فربت بيده على كتفيها بعد أن

طرقت الدموع عيناه، أما الطبيب فقد وضع الطفلة تحت جهاز التنفس وظل يراقب حالتها باستمرار...ثم حدثهما قائلًا:

- لماذا لم تأتوا بها باكرًا؟ الطفلة حالتها غير مستقرة ومن الواضح أنها...

- لا...إنها ستعيش.

نطقتها المرأة العجوز بقلب ممزق وعيون مدمعة وعلى إثرها تحرك فؤاد ماجد والطبيب.

ثم أكملت:

- حفيدتي سارة ستعيش...حقًا ستعيش...كيف لها أن ترحل وتترك جدتها التي لا تملك غيرها وحيدة؟ كيف لها أن ترحل وتتركني؟ كيف؟

ثم انهارت في البكاء، فأجش ماجد في بكائه من تأثير الموقف ومن تفكيره في أمر زوجته التي مرضت ووهنت فجأة، لقد أتت تخيلات وهلاوس بصرية أمام عينيه، بأنها هي التي ترقد على هذا السرير مكان الطفلة تلفظ أنفاسها الأخيرة، فأفاق من تخيلاته وحزنه على صوت الطبيب:

- من فضلك اذهب حالًا إلى الصيدلية التي توجد مقابل المشفى وأتِني بهذا العلاج على الفور.

فأعطى له الروشتة، فأخذها ماجد ثم تحدث:

- حسنًا.

وأثناء انصرافه تحدث الطبيب مرة أخرى:

- من فضلك لا تتأخر...الحالة سيئة للغاية.

فنظر ماجد للطفلة الراقدة وضعف المرأة العجوز المرسوم على ملامحها ثم لنظرات الطبيب التي أثارت الرهبة داخله ثم انصرف مسرعًا.

على أريكة في طرقة مشفى البلدة التي يوجد بها ماجد ولكن في طابق آخر، كانت تجلس بائسة ودموعها تنجرف مثلما تنجرف أمواج البحار، يتردد حديث الطبيب على مسامعها وهو يقول:

– سوف نأخذ جرعة من الكتلة التي توجد على ثديكِ لفحصها وبعد ذلك سنجري عدة فحوصات لمعرفة إذا كان المرض انتشر أم لا...من فضلكِ اذهبي إلى المعمل لأخذ العينة وبعد الانتهاء من فضلك انتظري بالخارج لمعرفة النتيجة.

أفاقت من حزنها على صوت الممرضة وهي تقول:

– سيدتي الطبيب في انتظارك.

فقامت من مجلسها بعد أن جففت دموعها ثم توجهت إلى غرفة الطبيب وهي في حالة يرثى لها، فوقع نظرها على التحاليل التي توجد بيد الطبيب، نبضات قلبها أصبحت في تزايد، وصدرها يعلو ويهبط من شدة قلقها، أما قدماها فكانت لا تحملانها، ثم أردفت بصوت متقطع بعد أن وجدت الحزن مرسوم على معالم وجه الطبيب:

– كانسر...أعلم أنني مريضة كانسر...هذه الأعراض رأيتها من قبل على والدتي... سأموت مثلها وأرحل عن هذه الدنيا مثلما هي رحلت وتركتني.

ثم أجشت في البكاء وكادت أن تسقط أرضًا لولا أن أمسكت بها الممرضة وأجلستها على المقعد بمساعدة من الطبيب، فنظر إليها الطبيب في عطف ثم تحدث:

– ابنتي، بكاؤك لا يفيد بشيء...حاولي أن تتقبلي حقيقة مرضك لكي تتعايشي معه.

فأردفت بصوت مختنق:

- وكيف لي أن أتعايش معه؟ وأنا أعلم أن نهايتي قد حانت.

- لا تتفوهي بمثل هذا الكلام يا ابنتي...الأعمار بيد الله سبحانه وتعالى...أناس كثيرة قد أصيبوا بهذا المرض وشفوا منه ومارسوا حياتهم الطبيعية ثانية...الطب أصبح الآن في تقدم وحالتك يوجد لها علاج... ولكن أول مرحلة في علاجك هي ثقتك الكبيرة في رب الكون بأنه بيده كل شيء وقادر على كل شيء.

ثم أردفت بحزن:

- ونعم بالله.

فتابع الطبيب حديثه:

- أما المرحلة الثانية...فهى إرادتك وعزيمتك للانتصارعلى هذا المرض.

ثم أردفت في شجن:

- عن أي إرادة تتحدث أيها الطبيب...عن أي عزيمة تتحدث وحالتي النفسية في أسفل القاع...لا داعِ لكلامك هذا لأنني أعلم مصيري جيدًا...مصيري سوف يكون مثل مصير عائلتي.

* * * *

بينما ماجد قد أتى بالعلاج على وجه السرعة ثم تقدم به إلى الطبيب وتم إسعاف الطفلة وبفضل الله ثم ماجد والطبيب اجتازت مرحلة الخطر، فخرجت ابتسامة عريضة من شفاه المرأة العجوز حينما رأت حفيدتها أفاقت وتنفسها أصبح طبيعيًا، ثم اقتربت منها وهي كلها أمل وسعادة واحتضنتها بحرارة، ثم تركتها وتوجهت إليه وقالت:

- سيدي...أشكرك على كل ما فعلته معي من أجل حفيدتي...لولاك لكانت في سجل الموتى.

- لا تشكريني يا أمي...أنا لم أفعل شيئًا...الذي ساعدك وأنقذ حفيدتك هو الله القادر على كل شيء...أنا مجرد جند من جنود الله سخره لخدمتك فقط...لقد أراد الله أن أقابلك صدفة لأنه أعلم بحالك ويعلم أنك تستحقين المساعدة...ولو تريدين الشكر فواجب أن تتشكري الطبيب الذي بذل قصارى جهده من أجل حفيدتك.

وقبل أن يكمل حديثه قطعه الطبيب قائلًا:

- مثلما سخرك الله لخدمتها...أنا كذلك سخرني الله لعلاج طفلتها وهذا واجبي وعملي كطبيب والآن عليَّ الانصراف لمتابعة باقي الحالات.

ثم انصرف بعد أن خرجت منه ابتسامة للمرأة العجوز وكأنه يطمئنها أن حفيدتها أصبحت على ما يرام، بينما هو لمعت عيناه بالدموع بعدما رآها تمسك بمبلغ من المال وتصوبه أمامه ثم حدثته في انكسار:

- تفضل سيدي.

- بصوت مختنق وعيون مدمعة تحدث:

- ما هذا؟!!

- هذا مبلغ زهيد جدًا نظير مساعدتك لي في إنقاذ حفيدتي.

فنظر لها ودقق في الحزن المخيم على ملامحها فأثار هذا ضعفه وبنيانه الإنساني ثم ألقى بنفسه بين أحضانها باكيًا وكأنه كان يبحث عن أم له كي تواسيه في حزنه على زوجته التي ضعفت صحتها فجأة، وهي كذلك كانت تبكي في أحضانه وكأنه فلذة كبدها الذي كانت تبحث عنه بعد رحيل ابنتها.

خرجت من المشفى وهي في حالة انهيار داخلي، فاقدة لمذاق الحياة، تتجول في شوارع المدينة وهي تتذكر حديث الطبيب لها بأنها تعاني من كانسر في ثديها الأيمن ولا بد من التدخل الجراحي واستئصاله قبل تفشي المرض، كل دمعة تسقط من عيونها الحزينة تذكرها بماضيها وذكرياتها الأليمة، خروج أمها من غرفة العمليات بعد استئصال نهديها وهي باكية بقلب ممزق على أنوثتها التي تلاشت فجأة، ثم خروجها من المشفى بعد أيام من إجراء العملية بصحبة والدها وأخيها الأصغر، واستقلالهم لسيارة الأجرة لكي تصل بهم للمنزل ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، كانت والدتها تبكي على ضياع أنوثتها ودمار صحتها بحرقة مفرطة وكأنها نسيت بأن هذا هو قدرها الذي أراده الله لها، وفجأة أثناء ذهابهم للمنزل قد أتت أمامهم سيارة نقل ثقيل وصدمتهم جميعًا وأصبحت سيارة الأجرة عبارة عن كتلة صفيحية محطمة، لقد انتهت حياتهم للأبد وبالأخص هي التي كانت حاملة الهم والغم والحزن على فقدان جزء من جسدها الذي هو ملك الله قبل أن يكون ملكها.

تساقطت الدموع منها بغزارة شديدة على مصيرها الذي أصبح مثل مصير والدتها، وعلى ذلك تحركت قدماها بخطى سريعة وكأنها تعرف مقصدها، وبالفعل قد ساقتها قدماها إلى شاطئ بحر البلدة الذي يبعد عن منزل زوجها بمئات الأميال، فاقتربت منه وهي ناظرة لأمواجه المتقلبة وهي ترتطم بصخوره، ظلت ترمق تلك الأمواج رمقات فاحصة حتى أن خرجت عن صمتها المدفون قائلة:

- لا بد وأن يكون مصيري مثل مصيرك يا أمي...مرضك وموتك.

- ١٧ -

فخرجت الطفلة من المشفى بعدما استقرت حالتها الصحية، فأراد ماجد توصليهما إلى منزلهما البعيد المتطرف في آخر المدينة، فحاول أن يبث روح الفكاهة والأمل في قلب الجدة والحفيدة لكي يتناسوا ما حدث، ضحكات الطفلة البريئة شرحت قلبهما لأنهما تيقنا بأنها أصبحت في أحسن حال.

عبر ماجد الطرق الرئيسية إلى أن وصل لشارع البحر ومنه إلى الشوارع الضيقة كي يصل لمنزل الجدة، ولكن أثناء عبوره لطريق البحر استوقف سيارته بسرعة بعدما سمع صوت الطفلة وهي تصرخ قائلة:

- غريقة...جدتي غريقة في البحر.

فتوجه بنظره إلى الشاطئ، فوجد فتاة في منتصفه تعافر مع الأمواج وعلى إثر ذلك فتح باب السيارة وترجل منها مسرعًا حتى يلحق بها كي ينقذها، وعندما وصل إلى شاطيء البحر قام بخلع قميصه وقفز في مائه بكامل نشاطه وقوته وظل يسبح عابرًا الأمواج الشديدة وكأنه سباح ماهر، وعندما وصل إليها وجدها فاقدة لكل شيء حوله، حاول التشبث بها

جيدًا والسباحة بها حتى يصل إلى الشاطيء ولكن فجأة هبطت عليه صاعقة قسمت ظهره وأفنت زهرة شبابه وذلك حينما وجدها زوجته مايا، فحاول التملك من نفسه والخروج بها ثم بعد ذلك يفهم منها طبيعة ما حدث.

بعد أن اقترب من الشاطيء حملها بين ذراعيه ووضعها أرضًا ثم حاول إفاقتها مرات عديدة، فأتت إليه الجدة العجوز ومعها طفلتها متسائلة:

- ماذا حدث؟؟ هل أصابها شيء؟؟ من تكون تلك الفتاة لتلقي بنفسها في ماء البحر هكذا؟

فقال بصوت مخنوق وعيون مدمعة:

- إنها زوجتي.

فقالت وهي في حالة دهشة:

- زوجتك!!

فأومأ برأسه إيجابًا ثم حاول إفاقتها ثانية وهو يهتف باسمها:

- مايا...أفيقي يا مايا.

فانسالت الدموع من عيونه وعلى إثرها رق قلب الجدة، فربتت على كتفه وقالت:

- لا تبكِ يا بني...إنها بأمر الله ستفيق وتعود معك إلى دارك.

فقال لها بقلب ممزق:

- أتمنى ذلك يا جدة.

ثم حاول أن يضغط براحة يده على صدرها مرات عديدة حتى أن أفاقت وأخرجت ماء البحر من جوفها، فتنفس الصعداء وانفرجت أساريره ثم

حمد الله، بينما هي نظرت أمامها بعدما أفاقت وأستردت وعيها فوجدته أمامها، فانهارت جوارحها ثم ألقت نفسها في أحضانه وقالت:

- ماجد...لقد كتبت النجاة لي مرة ثانية على يدك.

ظلت تعانقه بشدة وكأنها تختبأ تحت عباءته حتى يحميها من عثرات الزمن، أما المرأة العجوز فتأثرت لوضعهما وعلى إثر ذلك جففت دموعها ثم دعت في داخلها أن يحفظهما الله من كل سوء.

* * * *

وصل بزوجته إلى منزله بعدما أوصل الجدة وحفيدتها إلى عقر دارهما، ثم حاول التحدث مع زوجته بهدوء لفهم طبيعة ما حدث، فأردف قائلًا:

- حبيبتي مـايـا...ماذا حدث معكِ؟ أخبريني...لماذا خرجتِ من المنزل في هذا التوقيت؟ ولما ذهبتِ إلى بحر البلدة؟ وماذا حدث لكِ لكي تنجرفي مع أمواجه المتقلبة؟

فنظرت له، فوجدت الفزع متملك منه ولكن الطيبة والعطف تأخذ النصيب الأكبر من ملامحه، ثم تحدثت في صوت واهن وقالت:

- خرجت من المنزل كي أذهب إلى المشفى.

فنظر لها بوجه عابس وقال:

- ولما ذهبتِ بمفردك؟ وأنا في الصباح الباكر عرضتِ عليكِ بأن نذهب للطبيب سويًا ولكنك صممتِ بأن نذهب ليلًا.

فأجابته قائلة:

- ذهبت كي أتأكد من حقيقة مرضي...مرضي الذي هو هلاكي وهلاكك يا ماجد...وعلى إثره ذهبت إلى البحر كي أخلص من حياتي

المتناهية حتى لا أكون عبئًا عليك أكثر من ذلك...ذهبت وألقيت بنفسي بين أمواجه الجارفة حتى أذهب لعائلتي التي لم تخرج من فؤادي يومًا ما. فتملك الضعف منه وانهار كل شيء داخله، ثم تحدث بصوت محشرج وبعقل مشتت:

– حقيقة مرضك!! ذهبتِ لكي تنهي حياتك بيدك!! أنا لا أفهم شيئًا من حديثك الغامض.

فتابعت حديثها وهي تفرك كفيها وقالت:

– ماجد...أنا مريضة كانسر مثل والدتي...لقد شاهدت الأعراض بنفسي على أمي قبل وفاتها ثم رأيتها على نفسي...ولهذا ذهبت إلى المشفى كي أتأكد من صحة شكوكي وبالفعل تأكدت من الطبيب بأنني أعاني من كانسر في الثدي الأيمن ولا بد من التدخل الجراحي قبل تفشي المرض.

فترقرقت الدموع في عينيه وانحبست أنفاسه ثم ظل ينظر لها نظرات حزينة، ولكنها حدثته قائلة:

– لا تبكِ يا ماجد...لا فائدة من البكاء بعد اليوم...كلها أيام وسأغادر هذه الدنيا بأكملها. فحدثها وهو يبكي:

– أنا لا أبكِ على حقيقة مرضك ولكن بكائي وحزني ناتج عن تفكيرك العقيم الذي زينه الشيطان في عقلك...فقدتِ الأمل في قدرة الخالق وحاولتِ انهاء حياتك حتى تلحقي بعائلتك وحتى لا ترهقيني بهمومك ومشاكلك التي زعمتها.

فحاولت أن تتحدث ولكنه قطع حديثها وتابع كلامه قائلًا:

– أنا أعلم جيدًا أن الذي أحب وذاق لوعة الحب سيكون على استعداد تام بمشاركة حبيبه في كل تفاصيله...سواء كانت في الفرح أو الحزن أو حتى المرض الذي نهره...كنت أعتقد بأنك ستأتين إليَّ وتخبرينني بتعبك المفاجيء وتلقين بنفسك في أحضاني كي تستمدي قوتك بي بدلًا من أن تدفني شبابك وتفكري في الانتحار من أجل وساوس اختلقت في فكر عقيم...كل ما جال في فكرك هو حياتك التي لا تريدينها ولم تفكري لحظة واحدة في حياتي التي أريدها معكِ...لو كنتِ تعلمين مقدار حبي لكِ ما فكرتِ في ذلك الأمر يا مايا...أنا ألومك وبشدة...ألومك على ضعفك واستسلامك لعقبة في طريقك الذي لم ينتهي بعد...ألومك على الانسحاب من دنيا ماجد الذي أحبك بكل كيانه..كيانه الذي امتلكته أنتِ عندما جمعكِ القدر بي وأصبحتِ له معنى الوطن.

فتناثرت دموعها وأحست بالضعف والتلاشي، ثم أردفت:

– ماجد...أنا ضعيفة لأقصى ما تتخيل...أنا جسد فاني بروح هائمة في عالم آخر ليس له وجود...الحزن والفرح داخلي في صراع دائم...كلما حاولت النهوض بنفسي من أجل الحياة معك كلما دق الحزن على بابي وذكرني بعائلتي التي فقدتها في لمح البصر وأصبحت من بعدهم كائن هش ليس له وجود ولا أمل في النهوض بنفسه.

فرق قلبه الحاني لها، ثم ضمها لصدره محاولًا التخفيف عنها، فحدثها قائلًا:

– مايا...أنا أحبك حبًا جمًا ليس بعده حب...رجاءً منكِ يا حبيبتي لا تتركيني وابقي معي من أجل إكمال حياتنا التي ستحلو بأمر الله.

فحدثته قائلة:

- سأظل معك يا حبيبي...سأظل معك من أجل حبك الذي ليس له بديل في هذا الكون...سأظل من أجل الطيبة الساكنة بداخلك والتي هي عنواني في الحياة.

ثم عانقته بشدة وكأنها تريد أن تتطهر من الذنب الذي اقترفته في حق نفسها، بينما هو ضمها إليه بقوة حتى يسكن داخلها ويحيا بحبها الساكن بين ضلوعه.

* * * *

في اليوم التالي ذهب بها إلى مشفى البلدة كي يتناقش مع الطبيب بأمر مرضها وحينما دلف إلى غرفة الطبيب حدثه قائلًا:

- زوجتي أخبرتني بأنها تعاني من كانسر في ثديها الأيمن ولا بد من التدخل الجراحي قبل تفشي المرض...ولهذا جئت إليك كي أخبرك بأنني على استطاعة لعلاجها...ولكن أيها الطبيب أتوسل إليك بأن تكون إليها رحيمًا وأن تبذل قصارى جهدك كي تنهض بحياتها لي مرة ثانية.

فنظر له الطبيب، فوجد الحزن مرسومًا على ملامحه بل وعلى ملامحها هي أيضًا ولذلك حدثه بقلب الإنسانية النابض داخله قائلًا:

- لا تقلق يا سيدي بشأن مرض زوجتك...حالتها الصحية بأمر الله ستكون مستقرة، ولكن عليها أن تتقبل طبيعة حالتها كي تواصل في مسيرة حياتها...العامل النفسي له دور هام في تلك الحالات وأنا أرى زوجتك حالتها في أسفل القاع...ولذا أود أن أقترح عليكما بأن تتركا ذلك المرض لبضع من الأيام وتغادرا هذه البلدة حتى تذهبا إلى رحلة

استجمام كي تعيد بنيانكما الذي ضعف وتبدد حاله وبعدها بإذن الله سنبدأ في مرحلة العلاج الجسدي.

فنظر ماجد إلى زوجته الصامتة ثم نظر إلى الطبيب متحدثًا:

– أفهم من حديثك أيها الطبيب بأن تغيير الجو علاج لها مثل العلاج الجسدي؟

فأجابه بثقة:

– بالطبع...العلاج النفسي أهم بكثير من العلاج الجسدي...زوجتك لو تحسنت حالتها النفسية ومارست حياتها بشكل طبيعي تأكد بأن صحتها ستكون على ما يرام.

فحدثه قائلًا:

– إذن سنلتقي مرة ثانية بأمر الله كي نحدد موعد العملية.

فأجابه قائلًا:

– حسنًا...والآن يمكنك الذهاب بصحبة زوجتك لقضاء شهر عسل جديد.

فارتسمت ابتسامة بسيطة على ملامح ماجد ثم نظر لزوجته، فبادلته نفس الابتسامة، ولكنها ابتسامة لها مغزى ومعاني أخرى هي فقط تعلمها.

وأثناء انصرافهما حدثه الطبيب قائلًا:

– سيدي أود أن أتحدث معك بشأن الطفلة التي أتيت بها ليلة أمس.

فنظر له ماجد مدققًا في ملامحه وكأنه أحس بشيء غامض هدد كيانه، ولذلك حدث زوجته بابتسامة مشرقة كي يقطع الرهبة التي اجتاحت كيانه حتى لا تشعر هي الأخرى بشيء:

- زوجتي مايا...هل يمكنك الانتظار بالخارج لبضع من الدقائق كي أتحدث مع الطبيب؟

فحدثته بصوت واهن وقالت:

- حسنًا يا زوجي.

ثم انصرفت وأغلقت الباب خلفها، بينما هو توجه واقترب من الطبيب بقلب مضطرب ثم حدثه بصوت متقطع قائلًا:

- هل حدث شيء لزوجتي أيها الطبيب؟ من فضلك أخبرني؟

فقام الطبيب من مكانه ثم توجه واقترب منه قائلًا:

- أنا علمت من زوجتك بأنك شاب تجري خلف رزقك وأن حالتك المادية ليست بميسورة ولذلك أحببت أن أبلغك بأن تكاليف العملية ليست هينة عليك بل تكاليفها مرتفعة جدًا.

فنظر له ماجد بوجه عابس وقلب منكسر، بينما تابع الطبيب حديثه وقال:

- أنت تعلم بأن هذا المشفى مشفى حكومي... أي لا يوجد به الإمكانيات اللازمة لإجراء مثل هذه العملية الكبيرة... عملية زوجتك لا بد من عملها في مشفى خاص حتى تطمئن على حياتها.

فانهارت جوراحه ونزفت ضلوعه وتحدث قلبه الباكي قائلًا:

- أفهم أن زوجتي ستموت ما دمت فقيرًا..

-١٨-

استقل سيارته بصحبة زوجته متجهين إلى مدينة نيسايا، تلك المدينة التي أرادت أن تذهب إليها مرات عديدة، ولكنها كانت تتراجع عن قرارها بترتيب من القدر، ولكن الآن تبدل الحال فجأة وذهبت إليها ماكثة فيها إلى الأبد، وذلك بعدما أخبرها زوجها بأنهما لا بد من ذهابهما إلى تلك المدينة كي يعيشا فيها بعد أن يحصلا على قدر من الاستجمام مثلما حدثهما الطبيب، وفجأة نظرت إليه وهو يقود سيارته، فوجدته شاردًا بذهنه ونظراته، ثم حدثته قائلة:

- ماجد.. أراك شاردًا ويبدو على ملامحك الحزن والسأم.

فأفاق من شروده ثم حدثها قائلًا:

- كيف أكون حزينًا وأنتِ بجواري يا حبيبتي؟

ثم ابتسم لها ابتسامة عريضة، ولكنها تعلم حقيقة تلك الابتسامة، ما هي إلا ستار عما يخفيه قلبه من أوجاع...ثم تابعت حديثها وقالت:

- لماذا قررت الرحيل عن بلدتك وذهابك إلى مدينة أخرى؟ على الرغم من أن الطبيب حدثك بأنني أحتاج إلى بضعة من الأيام للتنزه وليس المكوث فيها مطلقًا.

فرمقها نظرة سريعة ثم حدثها:

- أعلم أنكِ أصبحتِ تبغضين بلدتنا بشدة خاصة أنها تذكرك بعائلتك التي فقدتها فجأة؛ فلهذا قررت الرحيل والذهاب إلى نيسايا من أجل راحتك ومن أجل علاجك أيضًا.

فاحتلت الدهشة ملامحها ثم قالت:

- علاجي!!

ثم تابعت كلامها وقالت:

- علاجي النفسي يحتاج وقتًا قصيرًا وهو الخروج من قالب الأحزان كي أنهض بحياتي ثانية وليس المكوث طويلًا في بلدة لا نعلمها على الإطلاق.

فأجابها قائلًا:

- ليس علاجك النفسي فقط وإنما علاجك الجسدي، لقد أخبرني الطبيب بأنكِ ستقومين بإجراء عمليتك الجراحية في مدينة نيسايا؛ وذلك لأنه يتوفر فيها الإمكانيات اللازمة باستثناء أن الطبيب الذي سيقوم بتلك العملية طبيب ماهر وذو صيت لامع في أنحاء المحافظة.

فنظرت إليه فارتاحت بعض الشيء، ثم تابع كلامه قائلًا:

- سمعت أن مدينة نيسايا مدينة ساحلية ذات موقع متميز ولهذا أسر قلبي لها كي نبدأ بها حياة جديدة بعدما تتعافين من مرضك... سننشأ لأنفسنا ذكريات جديدة عنوانها الفرح والسعادة...ذكريات خالية من

كل الصعاب أو أي شيء يعيقها....بإلاضافة إلى ذلك البرج الشاهق الذي يدعى لاكي.

فارتسمت الفرحة على ملامحها ثم قالت بقلب نابض:

- برج لاكي.

فتابع كلامه وقال:

- أعلم أنكِ منذ سنوات طويلة تحلمين أن تذهبي إليه...لقد قرأت دفتر ملاحظاتك ذات مرة وعلمت أنكِ تتمنين رؤيته والصعود إلى قمته مع فارس الأحلام المنتظر حتى تتطلعا سويًا في ملامح المدينة الشاهقة، المحاطة بالبنايات الشامخة، بالإضافة إلى ذلك تلك البالونات الملونة التي تتمنين أن تقذفيها في الهواء من فوق قمته كي تشبعي داخلك تلك الرغبة الملحة التي تنبض داخل قلبك الحي.

فانفرجت أسارير وجهها وانتعش قلبها فجأة بعدما توقف لشهور عديدة ثم ارتمت برأسها مسندة على كتفه ثم حدثته قائلة:

- احتواؤك لي يا حبيبي وحبي النابض داخلك سيكونون هدفًا واضحًا لحياة مـايـا القائمة.

فحدثها مبتسمًا ومازحًا:

- زوجتي الحبيبة عندما أقدمتِ على كتابة مذكراتك وذكرتِ فيها فارس الأحلام المنتظر لكي تصعدا سويًا إلى ذلك البرج...لماذا لم تذكري بأنه يدعى ماجد صاحب العيون الساحرة التي سحرت قلوب فتيات البلدة بأكملها.

فنهضت من موضعها ثم حدثته بابتسامة مشعة وقالت:

- لأن فارس أحلامي كان علمه عند الله...والحمد لله لقد عوضني الله بأجمل فارس رأيته في حياتي...فارس سحرني عندما نظرت في عيونه الخضراء وصرت بعدها زوجة له.

فحدثها مازحًا:

- أفهم من حديثك بأن عيوني الخضراء هي التي جذبتك لي فقط وليس قلبي النابض.

فقالت في ابتسامة:

- بالطبع يا زوجي...إنها هي.

فتعالت ضحكاتهما سويًا حتى وصلت إلى عنان السماء.

* * * *

بعد أن استأجر شقة متوسطة على قدر حاجته ثم فرشها بذلك الفرش البسيط، اقترح عليها الذهاب إلى برج لاكي الذي تنتظر الذهاب إليه على أحر من الجمر، فسرت بذلك الخبر وقفزت فرحًا وكأن المرض قد غاب عنها، وفي خلال دقائق معدودة قد جهزت هندامها ووضعت مساحيق التجميل البسيطة ثم تأبطت ذراعه ذاهبة إلى حلمها المبتغى، وعندما صعدت إليه وأصبحت فوق قمته العالية، شهقت من هول المنظر حينما نظرت للأسفل، فلقد وجدت نفسها محاطة بالمياه الصافية في جميع الاتجاهات، فكان ما يميز هذا البرج بخلاف ارتفاعه الشاهق أنه يتوسط مياه البحار وذلك حدث فريد بالنسبة لتلك المدينة فجعله نشاطًا سياحيًا يجذب آلاف الزوار.

فقد نظر إليها فوجدها في قمة سعادتها وكأنها حصلت على كنز ثمين جعلها من الأثرياء، ولحظات بسيطة وازدادت سعادتها وتعالت ضحكاتها، وذلك حينما ألقت بتلك البالونات الملونة من أعلى البرج فجعلت تتطاير في الهواء، ظلت تتابع تحركها بشغف ولهفة وكأنها في انتظار معرفة مصير آخر بالونة، هل هو التناثر في الهواء والسباحة بين سحابه الملبد بالغيوم أم السقوط في أمواج البحار الجارفة؟

وحينما نظر إلى آخر بالونة موجودة في يدها حدثها قائلًا:

– ما مصير تلك البالونة البيضاء؟ هل مصيرها القفز من فوق هذا البرج أم الاحتفاظ بها لغرض راسخ في عقلك؟

فنظرت إليه وقالت:

– هذه البالونة البيضاء من الصعب إلقائها من فوق هذا البرج لكونها تحمل لونًا مثل لون قلبك الأبيض الدافئ...قلبك الذي أحياني الآن بإثر نبضاته المنتظمة فتجعلني في حالة رواج عاطفي.

فنظر في عيونها ثم حدثها:

– أفهم من ذلك أن هذه البالونة ستذكرك بي في حالة غيابي عنكِ ساعات بسيطة عندما أذهب إلى عملي.

فأجابته:

– أنا لست بحاجة لنسيانك يا زوجي كي أتذكرك؛ لأنك تمكث بداخلي ولكن هذه البالونة سأحادثها باستمرار في حالة ذهابك للعمل وكأنني أحادثك تمامًا...سأقص عليها كل ما يحمله قلبي وعندما تعود لي من عملك سأقص عليك ذلك الحديث ثانية.

فحدثها بعدما خرجت منه ابتسامة مشرقة قائلًا:

- أخاف أن تهلك أحبالك الصوتية عندما تكررين الكلام ثانية.

فقالت:

- لا تخف يا زوجي...أحبالي الصوتية متينة جدًا وليس من الصعب تمزقها أو إتلافها.

فتعالت ضحكاته على إثر حديثها العفوي، ولكن صرخات الفرحة قد زارت مسامعه؛ وذلك حينما أمطرت السماء بحبات المطر التي أنعشت قلبيهما فجعلت منهما عصفورين هائمين في سماء الحب، فاقترب ماجد منها ثم حملها بين ذراعيه وظل يلتف بها لفات متتالية وهي صارخة من شدة فرحتها، ثم حدثته وهي متشبثة به:

- لقد تحقق حلمي، فارس أحلامي يحملني بين ذراعيه ويلتف بي تحت قطرات المطر التي أنعشت فؤادي.

فحدثها مازحًا:

- ويدعى ماجد صاحب العيون الملونة.

فأكملت قائلة:

- وهي فقط من جعلتني أعشقه منذ الوهلة الأولى حينما التقيت به.

فحدثها قائلًا:

- طالما عيوني فقط هي التي جعلتك تعشقينني وليس قلبي الحاني، إذن ستنالين عقابًا وخيمًا مني.

فظل يلتف بها بكامل قوته، بينما هي تتعالى صرخاتها في عنان السماء ثم تحدثت قائلة:

- وهذا أجمل عقاب قد حصلت عليه في حياتي.

* * * *

بعد عناء ذلك اليوم الذي أصبح من أحب الأيام إلى قلبها دلفت إلى منزلها بصحبة زوجها، وبعد ساعات بسيطة من الفرحة الساكنة بين ضلوعها ذهبت إلى سريرها المتواضع وألقت بجسدها الهزيل عليه ثم ذهبت في سبات عميق، بينما هو كان جالسًا بجوارها، ناظرًا إليها، متأملًا في ملامحها التي غابت قبل ذلك اليوم، ولحظات بسيطة وقد ترقرقت الدموع في عيونه واتحدت مع الحزن الساكن بين ضلوعه ونشأت داخله حالة من الضياع وفقدان الهوية؛ وذلك حينما تذكر حديث الطبيب معه عن حالتها الصحية...

فانهارت جوراحه ونزفت ضلوعه وتحدث قلبه الباكي قائلًا:

- أفهم أن زوجتي ستموت ما دمت فقيرًا.

فربت الطبيب على كتفه ثم حدثه قائلًا:

- سيدي الأعمار بيد الله وحده، هو فقط من يمتلك صلاحية حياتنا، ولكننا نأخذ بالأسباب.

ثم نظر إلى ماجد الباكي وأكمل حديثه:

- أعلم بأنك شاب لا تمتلك غير قوتك اليومي؛ ولهذا سأقترح عليك حلًا من الممكن أن يريح فؤادك الباكي.

فنظر إليه ماجد ثم جفف دموعه بكفه وذلك بعدما أحس بوجود بصيص من الأمل من حديث الطبيب معه، ثم حدثه قائلًا:

- أي حل تتحدث عنه آيها الطبيب...من فضلك أجبني وأرح قلبي المنهك الذي تمزق بفعل الأيام.

فحدثه الطبيب قائلًا:

- أنت تعلم بأنني أعمل فقط داخل هذا المشفى الحكومي وليس لدي عمل خاص، ولهذا سأقدم لك مساعدة مني لعلها تكون سببًا في شفاء زوجتك، ولكن عليك بالوعد قبل أن أكمل حديثي.

فنظر إليه ماجد والدهشة مرتسمة على ملامحه ثم حدثه قائلًا:

- أي وعد تتحدث عنه أيها الطبيب!! وما هي نوع المساعدة التي تقدمها لي ما دمت لا تملك صلاحيةً بإجراء تلك العملية؟

فحدثه الطبيب قائلًا:

- أعطني كفك سيد ماجد، وعدني بتنفيذ ما أطلبه منك وبعدها سأكمل حديثي.

فمد له كفه وهو في حالة من الدهشة الممزوجة بالغموض والحزن، ثم تشابكت يده في يد الطبيب وقال:

- هذا وعدي لك بتنفيذ ما تطلبه مني ما دمت أنك ستساعدني في النهوض بحياة زوجتي.

فحدثه الطبيب قائلًا:

- وأنا أتمنى أن تحافظ على ذلك الوعد ما دمت حيًا.

ثم أكمل الطبيب حديثه:

- سيد ماجد، أنا لدي صديق مقرب يمكث في مدينة نيسايا، إنه طبيب مختص وماهر في الحالات المشابة لحالة زوجتك، سأرسلك إليه بقرار

وصاية مني بأن يقوم بإجراء تلك العملية على فور السرعة وذلك بثمن زهيد جدًا، ثمن على قدر حالتك المادية فقط.

وقبل أن يكمل الطبيب حديثه، حدثه ماجد متسائلًا بعدما غابت معالم وجهه:

- ولما؟؟ لماذا تفعل ذلك معي وأنت في المقابل لا تعرفني جيدًا؟

فأجابه الطبيب:

- سيد ماجد.. فعل الخير ومساعدة الغير لا يحتاج لمبررات أو إجابات مقنعة، وإنما هي حالة تسكن في وجداننا.

فحدثه ماجد بملامحه التائهة:

- أفهم من حديثك بأن ما تفعله معي الآن هو ما تفعله مع غيري.

فأجابه قائلًا:

- بالطبع يا سيد ماجد؛ لأنني قد قطعت العهد بيني وبين ربي بأن أساعد كل من يحتاج المساعدة؛ وذلك لأنني قد توارثت تلك المساعدة من آبائي وأجدادي وكل من كان له صلة بي.

فتحدث ماجد قائلًا:

- أفهم من حديثك الذي أثار الحيرة داخلي أن هذا الوعد الذي قطعته معك الآن هو بخصوص المساعدة لغيري.

فتحدث الطبيب قائلًا:

- أحيك على فطانة عقلك التي جعلتك تفهم مقصدي.

فتابع الطبيب كلامه:

– ما نحن في هذه الدنيا إلا عابروا سبيل، مهما طال عمرنا أو قصر فإن نهايتنا واحدة، فالفائز هو من يغتنم فترة مكوثه في هذه الدنيا الزائلة كي يرقد في قبره بسلام ويحيا بنعيم الآخرة.

فأجابه ماجد بثقة وتحدي:

– أعدك أيها الطبيب بأنني سأقدم المساعدة لغيري على حسب قدرتي، أما ما فعلته لي فأنا لن أنساه ما دمت حيًا، سأظل أتذكرك دائمًا وسأدعو لك في صلاتي.

فارتسمت الابتسامة على ملامح الطبيب ثم حدثه قائلًا:

– وهذا ما أريده يا سيد ماجد.

فأفاق ماجد من شروده ثم جفف تلك الدمعة الحزينة التي تساقطت من عيونه، ثم نظر إليها وهي لا زالت نائمة ثم حدثها بصوت خافت مليء بالشجن:

– بأمر الله ستعيشين يا مـايـا..

* * * *

في مساء اليوم التالي عندما انتهى من عمله في تمام الساعة الحادية عشر، حدثها عبر الهاتف وهو يقود سيارته عائدًا إلى منزله قائلًا:

– حاولت الانتهاء من عملي على وجه السرعة ولكنني لم أستطع، رجاءً منكِ ألا تغضبي، أعلم جيدًا أننا سنذهب سويًا في الغد إلى المشفى من أجل إجراء العملية، فكان لا بد من وجودي باكرًا كي أجلس معكِ أطول وقت ممكن حتى يطمئن فؤادك، ولكن الظروف منعتني من ذلك.

فحدثته في شجن :

- ماجد أنا خائفة من الغد، لا أريد الذهاب لذلك الطبيب ولا أريد إجراء تلك العملية.

- حبيبتي، كيف تخافين ورب العباد موجود! كيف تخافين وزوجك المخلص بجوار قلبك النابض! هدأي من روعك يا زوجتي، العملية ستنتهي على وجه السرعة وتعودين إليَّ من جديد كي نبدأ حياتنا في تلك المدينة التي أسرت فؤادنا.

فأجابته في ضعف:

- حسنًا.

- والآن سوف أغلق معكِ المحادثة كي أعود إليكِ مسرعًا من أجل تناول العشاء الفاخر الذي في انتظاري.

فأجابته:

- العشاء على الطاولة في انتظارك يا زوجي.

- حسنًا، سآتي على الفور.

ثم أغلق معها المكالمة وقاد سيارته بسرعة كي يصل إليها باكرًا، ولكن وقع نظره على بعد أمتار بسيطة، فوجد على قارعة الطريق فتاةً وطفلًا يقفان وسط الأضواء الخافتة في حيرة متملكة على ملامح الفتاة، فاقترب ماجد منها ثم حدثها:

- هل يوجد شيء سيدتي؟

فأجابته بنبرة صوت مليئة بالخوف:

- سيدي أريد الذهاب إلى مدينة بازوكلي، لا يوجد سيارة في هذا الطريق كي تنقلنا.

فحدثها ماجد قائلًا:

– هل تبعد عن مدينتنا سيدتي؟ لأنني عائد إلى منزلي.

فأجابته قائلة:

– إن الطريق يستغرق ساعتين وعشر دقائق.

فحدثها في حيرة قائلًا:

– ساعتان وعشر دقائق! إنها بعيدة للغاية.

فأجابته في توسل:

– من فضلك سيدي قم بتوصلنا إلى مدينتنا، الوقت قد تأخر والطقس يبدو سيئًا وأمي تموت قلقًا علينا.

فتحدث قائلًا:

– أتمنى توصيلك سيدتي، ولكن زوجتي في انتظاري، لقد وعدتها بأنني قادم إليها خلال دقائق.

فقالت في حزن:

– حسنًا سيدي، مثلما تشاء.

فتحرك لأمتار بسيطة، ولكنه عاد إليها بعدما تذكر حديثه مع الطبيب وهو يقول له:

– أعدك أيها الطبيب بأنني سأقدم المساعدة لغيري على حسب قدرتي.

فوقف بسيارته أمامها ثم حدثها:

– فلتتفضلي سيدتي، سأقوم بتوصيلك إلى مدينتك.

فخرجت منها ابتسامة عريضة ثم تحدثت:

– شكرًا لك أيها السائق، إنني ممنونة لك.

ثم تقدمت إلى سيارته هي وصغيرها، ثم انطلق بهما إلى مدينتها بعدما حادث زوجته عبر الهاتف وتأسف منها؛ لأن ظروف العمل أجبرته على ذلك، فتحدث في داخله قائلًا:

- أعلم أنك حزينة الآن من داخلك، ولكنني قد وعدت الطبيب بمساعدة غيري، إنهما يحتاجان المساعدة خاصة أن الطقس يبدو سيئًا.

* * * *

ثم دققت بنظرها محاولة أن تقرأ ما هو مكتوب، ولكنها انتفضت من مكانها، فوقع الملف بأكمله أرضًا على إثر صراخ أخيها آسر، فأردفت بصوت متقطع حزين:

- ماذا حدث؟؟

فحدثها آسر فزعًا:

- ماجد حرارته في تزايد ويتمتم بكلام غير مفهوم!!

فتحركت من مكانها ثم توجهت بالقرب منه وجلست بجوار مقدمة رأسه وظلت تتحسس حرارته بكفها، وبمجرد أن لمست جبينه بكفيها البارد أبعدتها بعيدًا عنه؛ لأن حرارته قد بلغت ذروتها، فدب الخوف والفزع في قلبها المضطرب، ثم قالت بصوت مهتز:

- وما العمل يا أخي، ماجد سوف يضيع منا ونحن كذلك مثله سوف نفنى في هذا المكان.

فتحدث الصغير قائلًا:

- أختي، لا بد من حياة ماجد حتى لو كلفنا الأمر التضحية بأنفسنا، ماجد في البداية قدم لنا المساعدة من أجل توصلينا إلى مدينتنا بعدما تأزمنا

في الحصول على سيارة في ذلك الوقت المتأخر لكي تنقلنا، ماجد قد ترك زوجته المريضة من أجلنا، فالآن قد أتى دورنا وهو مساعدته كي يعود إلى بلدته سالمًا.

فحدثته بصوتها الباكي قائلة:

– ولكن كيف يا أخي؟ كيف ونحن في مكاننا هذا عالقون تحت تأثير المطر والأشباح بالإضافة إلى الظلام الدامس الذي يحاوط تلك البلدة، البلدة التي تخلو من الجنس البشري.

فحدثها متسائلًا:

– كارما، لماذا تركنا ماجد قبل مجيئنا إلى هذا المنزل الذي نحن فيه الآن؟

فنظرت إليه في حيرة وتفكير ثم أردفت:

– ماذا تقصد يا أخي؟

– أقصد أننا قد تركنا ماجد وذهبنا من أجل تلك البقعة الضوئية التي زعمتِ أنها طوق النجاة لنا.

فحدثته في صوت خافت:

– هل تقصد الذهاب إلى ذلك المكان من أجل طلب المساعدة؟

فحدثها:

– هذا ما كنتِ تريدينه يا أختي وليس ما أريده أنا وماجد.

فأردفت:

– ولكن كيف؟ والمطر في الخارج لا يكف عن اندلاعه بالإضافة إلى الظلام الدامس الذي جعلني داخل ثناياه فتاة كفيفة.

– مجازفة.

قالها الصغير لها وكأنه يأنبها أو يذكرها بقرارها الخاطئ من وجهة نظره، ثم أكمل حديثه قائلًا:

– أنتِ في البداية قد جازفتِ بحياتنا مرتين؛ مرة من أجل حضورك لذلك العرس في ذلك الطقس ومرة أخرى من أجل النهوض بأنفسنا والوصول لذلك الضوء، فلا مانع من مجازفة ثالثة منكِ، ولعلها تكون هي طوق النجاة حقًا وخلاصنا من تلك البلدة.

فنهضت من مكانها في تخاذل وتحركت خطوتين حائرة مفكرة في حديثه، ولكنها استدارت بجسدها على إثر صوته المتقطع الذي لمس كيانها، فنظرت إليه فوجدته يتحدث تحت تأثير غيبوبته هاتفًا باسمها:

– مـايـا...زوجتي مـايـا...مـايـا.

فترقرت الدموع في عينيها، ثم وجهت نظرها لأخيها حينما حدثها قائلًا:

– مثلما رأيتِ إنه يحلم بزوجته، لا بد من المجازفة يا أختي حتى ننهض به بسلام.

فأجابته بثقة وتحدي بعدما جففت دموعها بكفها:

– حسنًا...سوف أذهب لذلك المكان من أجل النهوض به، سأذهب حتى لو نال الشبح مني وأصبحت أمامه فريسة يلتهمها.

ثم تحركت من مكانها مغادرة الغرفة، ولكنها توقفت مكانها على إثر صوت أخيها، فبعد أن نهض من مكانه تحرك خطوات بسيطة ثم انبطح أرضًا وأخذ هاتفها ثم تقدم به إليها وحدثها:

– هاتفك يا أختي، لعله ينفعك في طريقك.

فنظرت إليه نظرات طويلة، ثم ألقت بنفسها بين أحضانه وظلت تقبله وتعانقه بحرارة وكأنها تخشى عدم اللقاء ثانية، وبعد أن انسحبت من أحضانه جففت دموعها مرة أخرى، ثم أخذت منه الهاتف وغادرت المكان على الفور، بينما هو فامتلأت عيونه بالدموع ثم تحدث في حزن:

- بأمر الله ستعودين إلينا وبأمره سنخرج من مكاننا هذا ونعود إلى حياتنا من جديد.

وما هي إلا لحظات بسيطة وقد تحرك إليه حينما سمعه يتحدث ثانية:

- مـايـا...كارما...آسر.

فاقترب منه وجلس بجواره ثم أمسك بكفه بيده الصغيرة الحانية وحدثه قائلًا:

- اطمئن يا صديقي أنا بجوارك ولن أتركك قط.

بينما هو ظل يكرر اسم كارما على شفتيه، فحدثه الصغير قائلًا:

- كارما قد ذهبت من أجل خلاصك، كلها دقائق بسيطة وتعود إلينا، اطمئن يا صديقي ستكون بخير وتعود إلى مدينتك من أجل زوجتك.

* * * *

بعد أن أصدرت السيارة صوتًا فجعل قلب تحية يرتجف، قام زوجها بالسيطرة على حركتها التي تترنح يمينًا ويسارًا حتى استطاع إيقافها بعد أن تبددت حالته، فأخذ أنفاسه بصعوبة ثم تحدث:

- يبدو أن لعنة عمورية قد حلت بسيارتنا.

فنظرت إليه بملامح فازعة وقلب متلاشي ثم أردفت:

– ماذا تقصد يا زوجي؟ تعني بأن صغارنا في خطر! تعني بأننا لا يمكننا الذهاب إلى عمورية من أجل إنقاذ ما تبقى لنا من ماضينا المندثر!

ثم أكملت حديثها وهي باكية:

– ماذا تعني يا حسن؟ ماذا تعني؟ من فضلك أجبني؟

فربت على كتفها مواسيًا لها ثم تحدث:

– لا تقلقي يا زوجتي سنذهب بأمر الله إلى تلك البلدة وسنعود بأطفالنا ونحيا حياتنا من جديد.

فحدثته متسائلة:

– كيف يمكننا الذهاب وسيارتنا قد تعطلت؟ كيف يمكننا الذهاب في هذا الطقس الذي لا يكف عن صاعقته التي نزعت قلوبنا من بين ضلوعنا الممزقة؟ كيف؟

فتحدث قائلًا:

– سنذهب ونعود بهما مثلما حدثتك، ولكن لا بد من مساعدتك الآن لي حتى ننهض بهما.

فنظرت إليه متسائلة، ولكنه أكمل حديثه وقال:

– يوجد في حقيبة السيارة عجلة إضافية تحتاج منا مجهود خاص حتى نستطيع تركيبها بدلًا من العجلة التي تلفت فجأة.

وما هي إلا لحظات بسيطة وقد ارتسمت الفرحة على ملامحها، وعادت إليها أنفاسها مرة أخرى، فترجلا من السيارة على الفور، ثم قام زوجها بتغيير العجلة بمساعدة منها، فكانت تنير له المكان بواسطة إضاءة هاتفها الخافتة، وبعد مدة بسيطة قد استطاع من تركيبها ثم أردف قائلًا:

- الحمد لله لقد انتهيت.

فحدثته بعد أن تنهدت:

- الحمد لله.. والآن يمكننا الذهاب إلى عمورية.

* * * *

بينما هي خرجت من المنزل بأكمله، راكضة تحت قطرات المطر بأقصى قوة تمتلكها، كان الخوف يدب على باب قلبها حقًا من أثر الرعد الذي زلزل كيانها، ولكن صورة ماجد قد ارتسمت أمامها فجعلتها تزيد من ركضها متفادية الوحل الذي غاصت فيه بقدميها، فكلما تعثرت في الركض كلما تذكرته وهو يهتف باسم زوجته التي في حاجة لوجوده، فظلت تركض وتركض إلى أن توقفت فجأة في مكانها عندما وجدت أمامها ممرًا خشبيًا عرضه لا يتجاوز النصف متر وطوله لا يتجاوز الثلاثة أمتار، فكان هذا الممر هو حلقة الوصل بين المكان الذي تقف فيه الآن وبين المكان الآخر الذي هو في الحقيقة نفس مكانها هذا، لقد ارتسمت الحيرة على ملامحها، ماذا تفعل ؟ هل تعبر ذلك الممر؟ أم تتركه وتذهب في طريق آخر؟ ولكنها لا تعلم أي طرق أخرى، فالمكان بأكمله عبارة عن أرض طينية تركض فيها دون الوصول إلى هدف محدد، ولكنها قد أخذت قرار العبور على ذلك الممر بعدما وقع نظرها على ضوء خافت يبعد عن مرمى بصرها بأميال عديدة، فأخذت هاتفها من كفها ثم وضعته في فمها وحاولت السيطرة عليه، ثم فردت ذراعيها وتحركت بحذر شديد حتى تستطيع التحكم بنفسها كي لا يختل توازنها فتسقط في مياه تلك الترعة العكرة التي توجد أسفلها، فتحركت بذلك الحذر حتى أن وصلت لمنتصف

الممر، ولكن فجأة تزحزحت قدماها عن خط سيرها مما أدى إلى سقوط الهاتف في الماء وانزلاق قدماها وكادت أن تسقط في مياه الترعة، فخرجت منها صرختان مدويتان؛ الصرخة الأولى لأنها تيقنت بأنها سوف تسقط في المياه، أما الصرخة الثانية التي فزعتها، حينما وجدت يدًا خفية تمسك بذراعيها بكل قوة تمتلكها حتى أن تمكنت اليد منها ونجحت في انتشالها قبل سقوطها، وحينما وقفت على ذلك الممر وجدت أمامها إضاءة صاخبة ولكنها مذبذبة بعض الشيء، تظهر وتختفي وكأن شخصًا ما يعبث بها، وفجأة بعد أن نظرت في ملامح تلك اليد المعاونة صرخت مرة أخرى، لقد وجدت أمامها تلك الفتاة صاحبة العيون الواسعة ذات اللون البني بنفس هيئتها التي رأتها منذ قليل في صورة خزانتها الشخصية، بضفائرها المنسدلة أعلى كتفيها حتى جلبابها الذي يميل إلى اللون الأحمر الممسك على خصرها والفضفاض من الأسفل، فحدثتها في صوت مرتعب يملؤه الدهشة:

- صفية!!

ـ ١٩ ـ

فحدثتها في صوت مرتعب يملؤه الدهشة:

– صفية!!

ظلتا ترمقان بعضهما البعض رمقات فاحصة، ولكنها كانت مختلفة عن بعضها، فنظرات كارما نظرات فزع وخوف وغموض، أما نظرات صفية فكانت نظرات أشبه بنظرات الحنين والشوق المصاحب للخوف، وما هي إلا لحظات بسيطة وقد اختفت صفية عن مرمى بصرها وكأنها ذهبت مع الريح، فتملكت الدهشة أكثر من ملامحها، كيف رحلت تلك الفتاة؟ وإلى أين ذهبت؟ وكيف أتت حينما أنقذتني من سقوطي؟ أسئلة كثيرة دارت داخل رأسها، ولكنها أقنعت نفسها أنها مجرد تخيلات بصرية؛ لأنها كانت تفكر في أمرها منذ وقت قليل.

فعاودت السير بحذر على ذلك الممر حتى أن عبرته بسلام ثم صارت في طريق طويل على أمل الوصول لتلك البقعة الضوئية التي هي مقصدها، وفجأة وجدتها أمامها ثانية على مقربة منها ناظرة إليها في صمت،

فابتعلت كارما ريقها وأخذت أنفاسها ثم حدثتها بصوت متقطع يصحبه خوف قائم في الوجدان:

– صفية، أأنتي موجودة حقًا في هذا المكان أم أنني يتهيأ لي ذلك؟ من فضلك أجيبيني.

فنظرت إليها صفية نظرات غامضة ليس لها تفسير ثم ركضت مسرعة وتركتها مكانها، وبدون تفكير منها ركضت خلفها حتى تعرف منها طبيعة الأمر، ولكنها توقفت مكانها وهي لاهثة وذلك بعدما اختفت صفية مرة أخرى من أمامها، أصبحت الآن عاجزة مكانها، خائفة، في حالة من التشتت، أما قطرات المطر الصاخبة المصاحبة لأصوات الرعد جعلتها في حالة من الهياج الداخلي، فظلت تلتفت حولها على أمل أن تجد مكانًا تختبأ فيه بعدما تزايدت الأمطار، ولكنها عجزت عن العثور على أي زاوية تختبأ خلفها، وفجأة ظهرت أمامها ثانية، ولكنها في تلك المرة كانت متحدثة إليها، فحدثتها بصوت مهتز خيمت عليه أصوات الرعد قائلة:

– كارما، سيري خلفي، كارما، النهاية قد حانت، قد حانت.

فسكنت الرهبة داخلها وكادت أن تقضي على حياتها التي أصبحت على وشك النفاذ، بينما هي ظلت تكرر حديثها مرات عديدة فأصبح الخوف لا يعرف طريقًا غير فؤادها الهالك، في تلك اللحظة وجدت نفسها تركض خلفها وكأنها مغيبة أو تابعة لها، وبعد أن قطعت شوطًا كبيرًا من الركض في ذلك الطقس الهائج توقفت مكانها فجأة، فنظرت أمامها فوجدت نفسها وحيدة وسط الأشجار اليافعة التي من هيئتها تجعل

الخوف يتربع داخلك، فرمقت المكان رمقات فاحصة وهي تأخذ أنفاسها وتبتلع ريقها ولحظات وقد سمعت صوتًا أنثويًا اخترق أذنيها، صوتًا مصدره بعيد عنها، ولكنه مرعب تارة وغامض تارة أخرى:

- نهاية الطريق قد حانت، نهاية الطريق قد حانت، سوف تهلك القلوب الظالمة، سوف تهلك القلوب الظالمة.

فاختبأت داخل كيانها الفاني والفزع متملك منها، ثم تحدثت في بكاء:

- ما هذا الذي أسمعه؟ وأين أنا الآن؟ لقد ضللت طريقي ولم يعد بوسعي التحمل أكثر من ذلك.

وفجأة نظرت خلفها بسرعة البرق على إثر صوت خلع فؤادها، لقد سمعت حفيف الأشجار مع أصوات الرعد المفزعة بالإضافة إلى حركات متتالية بين الأشجار المتراصة بجوار بعضها البعض، حركات غامضة بعيدة كل البعد عن حركات الإنسان المعتادة، ولحظات بسيطة وقد عاد الصوت الأنثوي من جديد وتناثر في المكان بأكمله:

- نهاية الطريق قد حانت، سوف تهلك القلوب الظالمة.

فرفعت نظرها للأعلى ثم صاحت بعلو صوتها:

- ماذا تريدين مني؟ ماذا تريدين مني؟ ويحك يا صفية، ويحك يا صفية.. ارحمي ضعفي وفناء جسدي، لم يعد بوسعي التحمل، لم يعد بوسعي التحمل.

ثم أجشت في البكاء وهي تردد قائلة:

- أريد الخروج من هذه البلدة الهالكة، أريد الخروج من هذه البلدة الهالكة.

فعاد إليها الصوت ثانية، ولكنه كان على مقربة منها:
- سوف تخرجين بعد أن يأخذ كل ذي حق حقه، سوف تخرجين بعد أن يأخذ كل ذي حق حقه.
فأحست بعد هذا الصوت بأنها تائهة في عالم فاني لا معالم له، ولكنها قد أحست أن الصوت يركض أمامها وكأنه شخص يركض من أجل الذهاب إلى هدف ما، ولحظات بسيطة وتكرر الصوت بتلك الجملة، فظل يكررها مرارًا وتكرارًا وهي راكضة خلفه، ركضت خلف مصدر الصوت وكأن النداهة قد نادت عليها، فلا بد من الخضوع لها دون نقاش.
بعد أن ركضت خلف ذلك الصوت توقفت مكانها مرة أخرى دون أن تأخذ أنفاسها المتلاحقة لأن أنفاسها بالفعل قد غابت عنها، فبعد أن رحل أثر الصوت عن مسامعها وجدت نفسها أمام بوابة حديدية مرتفعة يكاد يصل ارتفاعها للثلاثة أمتار، فرمقتها في غموض متفحصة ما خلفها وذلك حينما اقتربت منها وأمسكت بها، فحاولت النظر عما بداخلها عبر تلك الفتحة الصغيرة التي توجد في منتصفها فوجدت خلفها مبنى مرتفعًا جدًا، وكأنه قصر يمكث فيه أثرياء البلدة، فحاولت التدقيق مرة أخرى كي تتأكد من وجود أي أثر لجنس البشر داخله، جنس بشري تريده في تلك اللحظة حتى يأخذ بيدها من أجل مساعدة ذلك الشاب الراقد والنهوض به من جديد، ولكن فجأة تشخصت عيناها وارتسمت الدهشة على ملامحها الغائبة؛ وذلك حينما وجدت أمامها عبر تلك الفتحة الضيقة صفية بداخل هذا القصر ناظرة إليها، فتراجعت خطوة للخلف وهي مفكرة فيما يحدث، كيف دلفت صفية للداخل؟ كيف دلفت والبوابة مغلقة بإحكام شديد؟ فاقتربت ثانية من تلك

الفتحة ونظرت إلى صفية لعلها تكون قد اختفت أو أن ما رأته في البداية ما هو إلا هلاوس اختلقت داخل أذهانها، ولكنها وجدتها ما زالت في مكانها بل تنظر إليها وتشير إليها بذراعيها كي تتقدم إليها، ظلت تشير إليها مرات عديدة من أجل القدوم إليها، ولكنها ظلت مكانها حائرة، ماذا ستفعل؟ هل تدلف داخل القصر من أجل طلب المساعدة تارة، ومن أجل الإمساك بتلك الفتاة لمعرفة هويتها تارة أخرى؟ أم ترحل وتغادر؟ ولكنها فكرت بعقلها فحسمت أمرها بأن تدلف للداخل كي تنهض بحياتهم، فرمقت بنظرها للأعلى ثانية متفحصة تلك البوابة حتى ترسم خط صعودها، وبالفعل قد تسلقت عليها بحذر خوفًا أن تنزلق قدماها حتى صعدت إلى مقدمتها، فنظرت للأسفل من الداخل فوجدت صفية في انتظارها تشير إليها بأن تقفز، وبالفعل استجابت لطلبها ثم حاولت الهبوط بحذر مثلما صعدت، وحينما ترجلت بقدميها في أرض الحديقة وجدت صفية أمامها تبتسم لها ابتسامة عريضة، وفجأة ركضت صفية كعادتها وكأنها تداعبها أو تأنس وحدتها في تلك الليلة، فركضت هي الأخرى خلفها فوجدتها تقترب من بوابة أخرى داخل القصر ليست كمثل البوابة الخارجية في ارتفاعها، ولكنها أقل منها بمتر ونصف، وسرعان ما فتح ذلك الباب على مصراعيه فدلفت صفية إلى الداخل بينما هي حاولت النهوض خلفها، ولكنها تشبثت مكانها فجأة جراء ما رأت على يمينها، لقد وجدت لافتة زيتية اللون منحوت عليها اسم أفزع كيانها، لقد وجدت اسم القصر منحوت بلون أصفر ذو بريق خافت.. إنه قصر عمورية..

* * * *

بينما هو نهض من مرقده صائحًا باسمها:

- مـايـــا

فارتسمت الفرحة على ملامح الصغير وعادت إليه نبضاته مرة أخرى ثم حدثه قائلًا:

- الحمد لله بأنك استيقظت يا صديقي، واستردت عافيتك من جديد، لقد انخلع فؤادي عليك.

فنظر إليه ماجد بملامحه الغائبة ثم رمق المكان رمقات فاحصة ثم تحدث:

- آسر...أين نحن الآن؟

فتحدث الصغير قائلًا:

- لا أعلم يا صديقي أين نحن، ولكن مثلما رأيت بعيونك الواهنة، إننا في منزل متطرف مهجور منذ سنوات، جئنا إليه اضطرارًا من أجل الاختباء داخله حتى يكف المطر عن اندلاعه، ولكن بمجرد أن أتينا ودلفنا إلى تلك الغرفة وجدناك ملقًا أرضًا ومغشيًا عليك.

ثم أكمل حديثه بحنان وقال:

- ماذا حدث لك يا ماجد كي تفقد قدرتك هكذا؟ ماذا أصابك فجعلك أسيرًا لتعبك الهالك الذي دمر كياننا؟

فأجابه ماجد بصوت متعب وقال:

- عندما تركت سيارتي أنت وكارما من أجل وصولكما إلى تلك البقعة الضوئية انتابني شعور سيء.. كيف لي أن أترككما تذهبان دون أن آتي معكما؟ لقد لُمت نفسي مرارًا وتكرارًا إلى أن تركت سيارتي وحاولت اللحاق بكما، ولكن من سوء حظي بأني قد ضللت الطريق ولم أستطع

الوصول إليكما، بالإضافة إلى سقوط الأمطار الغزيرة التي جعلتني عاجزًا حتى عن الحراك، فحاولت النهوض بنفسي وأنا أرتجف من أثر البرودة التي لاحقت جسدي قبل أن ألقى حتفي في هذا المكان إلى أن وجدت هذا المنزل على مرمى بصري، فدلفت إليه من أجل الاختباء، ولكنني فجأة أحسست بدوار داهم رأسي وعلى إثره انبطحت أرضًا مغشيًا عليَّ.

فتحدث الصغير قائلًا:

- لا بأس يا صديقي، الحمد لله أنك أصبحت على ما يرام، والحمد لله لأننا تقابلنا ثانية.

فتحدث ماجد فزعًا بعدما التفت حوله متفحصًا تلك الغرفة:

- آسر...أراك لحالك في هذا المنزل.. أين كارما؟ أخبرني أين هي؟

فأجابه قائلًا:

- لقد ذهبت إلى تلك البقعة الضوئية من أجل طلب المساعدة حتى تنهض بك بعدما ساءت حالتك الصحية.

فحدثه متسائلًا:

- ذهبت من أجلي...كيف؟ المكان بالخارج لا يطمئن، المكان يبدو بأنه مستوطن للأشباح وليس للبشر.

ثم نهض من مكانه، فحدثه الصغير بعدما تملكت الرهبة منه وقال:

- هل رأيت الشبح مرة أخرى في طريقك؟ هل سينال من أختي ويفني شبابها؟ أجبني يا ماجد؟ أجبني يا صديقي؟

فنظر إليه بعطف، ثم وضع كفه على رأسه وحدثه:

- لا تخف يا صغيري، كارما لن يحدث لها سوء ما دمت أنا حيًا.
فتحدث الصغير بعدما تبدلت معالم وجه، وأردف:
- أتمنى ذلك.
وفجأة تحرك من مكانه، ثم تقدم إلى الخزانة المتهالكة بعدما وقع نظره على الأوراق الملقاة أرضًا، فجثى على ركبتيه ثم أخذ ورقة الجريدة التي كانت قارئة لها منذ قليل، فتملك الفزع من ملامحه حينما قرأ ما بداخلها ثم ارتسمت داخل عقله صورته وهو يبحث عنهما في ذلك المكان المظلم بعد أن ترجل من سيارته، فظل يهتف عليهما مرارًا وتكررًا، وهو يبحث عنهما حتى أن ساقته قدماه لمكان غريب لا يعلمه، بوابة حديدية مرتفعة ويوجد خلفها قصر كبير ملامحه ليست هادئة وإنما غاضبة مثل ذلك الطقس الذي زلزل المكان بأكمله، فحاول الصياح والنداء كثيرًا من أجل طلب المساعدة، ولكن لا يوجد يد واحدة تلبي رغبته الجامحة داخله، فدب اليأس داخله ثم تحرك مغادرًا وهو منتكس الرأس من أجل البحث عنهما في مكان آخر، ولكن وقعت عيناه فجأة على بوابة صغيرة في الجهة المقابلة لتلك البوابة الكبيرة، فذهب إليها ثم حاول فتحها مرات عديدة حتى أن نجح في فتحها بعدما تبددت قوته، ثم دلف لداخل القصر متحركًا في مكان شبه مظلم يلتفت أمامه وخلفه، وذلك بعد أن تملكت الرهبة من بنيانه خاصة وأن قطرات المطر الصاخبة المصاحبة لأصوات الرعد المزلزلة قد جعلته فريسة للخوف، وأثناء سيره داخل تلك الحديقة التي لا تنتهي بعد، صاح بصوت متقطع وضعيف مناديًا عما بداخلها، ولكن وقعت عيناه فجأة على خيال يركض أمامه، فهرب الدم من جسده

وتراخت أعصابه بعدما تأكد بأن هذا القصر ما هو إلا مستوطن للأشباح تمكث فيه، فحاول النهوض بنفسه كي يخرج من هذا المكان وأثناء ركضه العنيف حتى يبعد الأذى عن نفسه وقع نظره على لافتة صغيرة مثبتة في الأرض ومسجل عليها "مقبرة نبيل عمورية".

فاق ماجد من شروده على صوت الصغير وهو يحدثه:

- ماجد أراك مندمجًا في قراءة صفحة الجريدة مثلما فعلت كارما منذ قليل؟.

فنظر إليه نظرات مشتتة بين الفزع والخوف والضياع الحقيقي ثم حدثه قائلًا:

- آسر، كارما حياتها في خطر، لقد ذهبت إلى قصر عمورية وذلك من أجل طلب المساعدة لي.

فحدثه الصغير بخوف ودهشة:

- قصر عمورية!!

* * * *

فبعد أن تسمرت مكانها لدقائق أمام تلك اللافتة التي أفزعتها فجعلتها وقودًا لحطام الدنيا، تراجعت خطوة للخلف وهي في حالة من الضعف والانكسار واليأس، فحاولت الخروج بنفسها من ذلك المكان الغامض الذي أنهى حياتها، ولكنها دلفت للداخل بسرعة رهيبة حينما وجدت أخاها آسر في ردهة القصر الواسعة يقف بجوار تلك الفتاة التي تدعى صفية ممسكًا بيدها ونظراته إليها لا تنقطع قط، فبعد أن دلفت وتقدمت نحوه حدثته قائلة وهي في حالة دهشة وتعجب:

– آسر من أتى بك إلى هذا المكان؟!! وكيف أتيت يا أخي؟!! أترك يد تلك الفتاة فإنها تريد هلاكك وهلاكي، إنها مثل سكان تلك البلدة محاطة بلعنة عمورية، لعنة عمورية التي ستصيبنا لو لم ننهض بأنفسنا ونخرج من هذا المكان الذي يهدد حياتنا واستقرارنا.

وقبل أن يجيبها ذلك الصغير استدارت بجسدها فجأة بعدما سمعت صوت الباب وهو يغلق بصوت مرتفع، فتملكت الحيرة والدهشة أكثر على ملامحها ثم ترقرقت الدموع في عيونها، وحينما استدارت بجسدها ثانية للأمام من أجل محادثته تفاجأت بأنها بمفردها في تلك الردهة، لقد اختفى آسر مع تلك الفتاة الغامضة، الفتاة التي أفنت كيانها بغموضها المحير، هل هي كائن حي يحيا في تلك الدنيا؟ أم شبح من ضمن أشباح تلك البلدة المفزعة؟

فظلت تهتف بعلو صوتها عليها قائلة:

– آسر...أين أنت يا أخي؟ كيف ذهبت مع تلك الفتاة وأنا تركتك مع ماجد في منزلها؟ أين أنت يا آسر؟ ماذا حل بك ؟ ماذا أصابك يا ابن أمي؟

فتملك الضعف منها ثم جثت على ركبتيها وهي باكية، ثم أكملت حديثها قائلة:

– ماذا تريدين مني أنا وأخي يا صفية؟ ماذا تريدين؟ هل تريدين هلاكنا وفقدان حياتنا التي لم تبدأ بعد؟ أم تريدين الاستيلاء على عقلي الذي فسد منذ أن أتيت إلى هذه البلدة الملعونة التي هي مستوطنك أنتِ وباقي سكان البلدة بعدما حلت اللعنة عليكم؟

وفجأة ظهرت صفية أمامها بعيون نازفة وبقلب باكي، ثم حدثتها بصوت يملؤه الشجن:

- لا أريد هلاكك وفقدان حياتك مثلما تتحدثين، ولا أريد إفساد عقلك يا ابنة بطني، أنا جئت بكِ إلى هذا المكان بعدما أتى بكِ القدر إلى هذه البلدة دون أن تعرفي عن ماضيها العليل شيئًا واحدًا وعن وذلك.. ومن أجل استرداد الحقوق المسلوبة عنوة، الأرواح التي اغتصبت وانتهكت بين جدران ذلك القصر دون رحمة ولا شفقة منه، لقد أتيت بكِ من أجل أخذ حقي، حقي الذي سُلب مني بدم بارد على يد حفيد نبيل عمورية، جاسر عمورية الذي حرمكِ أنتِ وأخاكِ من حضن أمك التي تقف أمامك الآن، أمك التي رحلت من دنياكِ ظلمًا بعدما غلبها الهوى في حب ذلك الشخص الذي يعاني من اضطرابات نفسية تحيا بداخله.

كانت صامتة تستمع إليها والدموع في عيونها لا تريد التوقف عن سريانها لحظة واحدة، ثم حدثتها بصوت ضعيف متلاشي بعدما احمرت وجنتيها وعينيها من هول ذلك الحديث:

- أمي...أنتِ أمي التي راودتني كثيرًا في يقظتي قبل أحلامي، أمي التي غابت عن عالمي دون أن تودعني وداعًا يصحبه ألم يسكن بين وجداني، أحقًا أنتِ أمي التي حملتني في بطنها ومكثت معها سنوات بسيطة لا تذكر في سجلات حياتي؟! أم أنه يتهيأ لي رؤيتك لأنني كنت حالمة بكِ وأريد احتوائك بحضنك الدافي لي؟!

ثم أكملت حديثها ثانية وهي ناظرة إليها في بكاء:

- أخبريني بأن قطرات المطر قد أفسدت عقلي وجعلتني فاقدة للرؤية؛ ولهذا يتهيأ لي بأنك موجودة أمامي وتحدثينني وجهًا لوجه، من فضلك أجيبيني، من أنتِ؟ ومن أنا؟ وأين نحن الآن؟ من فضلك حدثيني، حدثيني يا صفية، حدثيني ولا تتركيني حائرة هكذا.

وفجأة نهضت من مكانها وهي في حالة من الشتات والفزع جراء ما شاهدته أمام نصب أعينها، لقد شاهدت أحداثًا حدثت في الماضي، وكأنها ركبت آلة الزمن وتحيا بحياتها بينهم، لقد شاهدت نفسها وهي طفلة صغيرة تلعب بجوار صغيرها الباكي آسر حينما تقدمت إليها صفية وحدثتها قائلة:

- صغيرتي كارما، أنا ذاهبة إلى قصر عمورية من أجل بيع الحليب، فلتمكثي مكانك لحين عودتي.

فحدثتها كارما قائلة:

- حسنًا يا أماه، ولكن كان عليكِ الانتظار للصباح، الجو ظلام بالخارج والطقس يزداد سوءًا

فحدثتها قائلة:

- أنا ذاهبة من أجل بيع الحليب حتى أوفر مستلزمات منزلنا يا حبيبتي.

ثم غادرت صفية والحزن متربع داخلها، ذاهبة إلى ذلك القصر بملابسها الفضفاضة، ولكن توقفت مكانها حينما هتفت عليها وتقدمت نحوها صديقتها تحية، فحدثتها قائلة:

- صفية، أين أنتِ ذاهبة الآن في مثل هذا الطقس المتقلب؟

فأجابتها بعدما جففت دموعها بكفيها:

- أنا ذاهبة إلى قصر عمورية.

فتملكت الدهشة من تحية، ثم حدثتها قائلة:

- قصر عمورية! أما زلتِ تذهبين إليه!! صفية، أخشى عليكِ يا صديقتي أن تفيح رائحتك مع ذلك الشخص، الشخص الذي سلب منكِ ما تمتلكه أي فتاة شريفة في بلدتنا، عودي إلى صوابك يا صديقتي قبل أن تنقلب البلدة عليكِ، عودي قبل أن تجني ثمار فعلتك الشنيعة على أطفالك الأبرياء ويحملا العار طيلة حياتهما.

فحدثتها صفية بحزن نابع بين أعماقها وقالت:

- سأعود حتمًا يا صديقتي، ولكن بعد أن أعلم مصير ما تحمله أحشائي.

فظهرت الدهشة والفزع على ملامح تحية، ثم حدثتها:

- ماذا تقولين يا صفية؟!! أحملتِ سفاحًا من ذلك الشخص! الشخص الذي هو خليفة إبليس في تلك الأرض! الشخص الذي قتل عائلته بأكملها دون رحمة ولا شفقة منه؟!

ثم أكملت حديثها وهي باكية:

- لماذا يا صديقتي؟ لماذا تلوثتِ في بركة مائه العكرة، بركة مائه المختلطة بالدماء المتناثرة في أرجاء البلدة.. لماذا؟

فحدثتها في ضعف:

- إنه قدري الذي سُقت إليه يا صديقتي بمحض إرادتي، والآن عليَّ الذهاب من أجل إثبات بنوة ما في بطني.

فحدثتها قائلة:

- أنتِ مخطئة يا صفية، ليس هو الشخص الذي سيمكنك من نفسه ونسبه.

فحدثتها بقلب حزين:

- أعلم ذلك يا صديقتي، ولكنها محاولة أخيرة مني لعلي أستطيع أن أرفع رأسي في البلدة ثانية بعد أن تحدثت الألسن بأمري.

ثم غادرت صفية وتركت تحية في حزنها القائم بين ضلوعها، فتحدثت تحية في ضعف:

- أخاف عليكِ يا صديقتي بأن يكون نسب طفلك على حساب حياتك.

فبعد أن ذهبت صفية إليه وحدثته بشأن حملها ثار عليها غاضبًا ثم حدثها:

- ماذا تقولين أيتها العاهرة؟ أأنتِ تحملين داخل أحشائك طفلًا مني! كيف؟

فأردفت بصوت واهن:

- أتوسل إليك بأن تلملم فضيحتي، أخاف أن تتحدث الألسن بأمري، أخاف أن تنقلب البلدة عليَّ، وسيكون مصيري حينها هو الذبح بعد الفضيحة الملاحقة لصغاري.

ثم أكملت حديثها بعدما تحرك خطوات بسيطة بعيدًا عنها:

- أنت تعلم بأنني أحببتك بكل كياني؛ ولهذا سلمتك بيدي شرفي في سبيل حبي لك، ولولا حبي لك الذي تنكره الآن لما فعلت ذلك.

وفجأة نظر إليها بنظرات غاضبة، نظرات تحمل الشر والانتقام داخلها، ثم حدثها بصوت مرتفع يحمل الغضب داخل نبراته:

- أتريدين أن تلصقي جريمتك بي في سبيل حياتك وحياة أطفالك الصغار؟ أتريدين أن يكون ذلك الطفل مثلي ومثل مريم أختي عندما جئنا نتيجة غلطة من أمي مع عمي فؤاد! أتريدين أن يكون ذلك الطفل ابنٌ طبيعي مع أنه في حقيقة أمره جاء نتيجة جريمة زنا اقترفتها أمه من أجل أهوائها وشغفها المطلق للرجال؟

ثم اقترب منها أكثر وأمسك بذراعها بكل قوة يمتلكها، ثم تابع كلامه:

- لا يا صفية، لستُ أنا، لست أنا فؤاد عمورية الذي سيرحب بذلك الأمر مطلقًا، أنا أكره النساء، وبالأخص النساء اللاتي تبحثن عن متعتهن في سبيل لذة محرمة من أجل إشباع ظمأهن العاطفي الذي يسكن داخلهن، لا، أسمعتي حديثي أم أكرره ثانية؟!

فحدثته في بكاء وضعف:

- لا تتفوه بمثل هذا الكلام يا جاسر، أنا أحببتك؛ ولهذا سلمت نفسي لك على أمل الزواج بي كي أتخلص من حياة الفقر التي تحاوطني وعلى أمل أن تكون أبًا لأطفالي اليتامى.

ثم تابعت حديثها:

- أنا لست فتاةً تهوى الرجال كما تظن بدليل أنني رفضت رجالًا كثيرًا أرادوا مني سواء بالزواج أو غير ذلك، أنت الرجل الوحيد الذي دق على بابي بعد رحيل زوجي، فرجاءً منك لا تنهر حبي لك في سبيل غلطة حدثت بينا بكامل إرادتنا.

فحدثها بوجه غاضب متسائلًا:

- أتريدين الزواج بي من أجل حبي النابض داخلك؟ أم من أجل أن أتستر على جريمتك التي ستلاحق بفضيحة في بلدة نائية سكانها لا يمثلون لي شيئًا على الإطلاق؟ تحدثي.. ماذا تريدين؟

فحدثته وهي في مثل حالتها قائلة:

- قبل أن تتحرك ثمرة حبي داخلي كنت أحبك بقوة وأريدك بكل كياني، ولكن الآن حبك في قلبي قد تزحزح بعدما رفضتني أنا وجنيني.

فحدثها وهو ممسك بذراعها:

- إذن أنتِ تريدين مني مصير طفلك فقط، وليس قلبي المغلق بعوامل الزمن الذي حطمته؛ ولهذا سأحدد مصير طفلك ومصيرك أيضًا.

وفجأة ترك ذراعها بنفس القوة الذي أمسكه به، ثم مد ذراعيه حول عنقها ضاغطًا بكل قوته حتى تختنق ثم حدثها:

- جئتِ بقدميك إلى أجلك المنتظر يا صفية، جئتِ كي تلحقي بعائلتي التي قتلت بدم بارد على يدي، جئتِ كي تنضمي أنتِ وطفلي إلى قائمة نبيل عمورية التي لم تندثر وأصبحت عالقة بين أذهان سكان البلدة.

فكانت في قبضة يده لا حول لها ولا قوة، تعافر مع الموت دون رحمة ولا شفقة منه، ثم أكمل حديثه:

- هذا هو مصير طفلي يا صفية؟ مصير طفلي الذي أعلم علم اليقين بأنه حامل لنسبي وأن دماءه هي نفس دمائي التي تسري داخلي، ولكني أخشى عليه أن يحمل مني صفاتي الذميمة التي اكتسبتها دون رغبة مني بعدما علمت حقيقة من يمكثون في ذلك القصر، لا أريد أن يكون لنبيل عمورية نسب يذكر على مر التاريخ، لا أريد أن تمتليء الأرض دماءً

سيكون هو سافكها حين قدومه إلى تلك الدنيا؛ وذلك لأنه سيكون مثل أباه طفل زنا.

وحينما انتهى من كلامه، ترك يده من حول عنقها فخرت على أرض قصره جثة هامدة، فتعالت ضحكاته الساخرة مرات عديدة ثم قال:

- الآن سوف أفتح قبرًا جديدًا من أجل إكمال مسيرتي، الآن سوف أفتح قبرًا جديدًا من أجل إكمال مسيرتي.

بينما هي كانت تقف على مقربة منه، ترى ما حدث لصديقة عمرها التي قتلت باسم الحب، لقد كانت تحية تبكي وهي صامتة؛ لأنها عاجزة أمام جبروت ذلك الشخص الذي ينتمي نسبه لعائلة إبليس التي ملأت الأرض دماءً وفسادًا متلاحقًا.

فبعد أن تركت جسدها بين قبضات يده، ذهبت إلى منزل صفية وأخذت صغارها، ثم ذهبت إلى منزلها وهي في حالة من النحيب والصراخ، وعندما سألها زوجها قصت عليه ما حدث، فأمرها على الفور بمغادرة تلك البلدة وتناسي ما حدث من أجل الصغيرين، فانصاعت لطلبه بعد محاولات فاشلة من قبلها بأن يقتصا من ذلك الشخص وأخذ حق صديقتها التي قتلت غدرًا، ولكن الخوف كان مسيطرًا عليه؛ ولهذا رحل هو وزوجته بصحبة الصغيرين إلى مدينة بازوكلي متناسين ما حدث، تاركين أرضهما ومنزلهما.

وبعد أن رأت كل شيء حدث لأمها أمام نصب أعينها، تفاجأت باختفائها وكأنها قد أنهت دورها والآن قد حان دور تلك الفتاة البائسة، فهتفت عليها من جديد بأعلى صوتها:

– أمي...أين أنتِ ؟ رجاءً منكِ لا تختفي وتتركني بمفردي حائرة.. أمي، أخبريني هل ذلك الشخص الذي أفنى شبابك ما زال على قيد الحياة أم ذهب إلى نار الخلد لكي يجازى بما فعل؟

وفجأة تفاجأت بظهور الشبح الذي شاهدته من قبل أمامها مرة أخرى ينظر إليها بنظرات غامضة، فابتلعت ريقها بعدما تملك الخوف والفزع من كيانها، فظلت تنظر إليه وهي تتراجع للخلف في ردهة القصر، فكلما تراجعت كلما اقترب منها بصمت، متطلعًا في ملامحها الغائبة إلى أن وجدت نفسها أمام باب غرفة مفتوح على مصراعيه، فنظرت لذلك الشبح نظرات خوف ثم نظرت لتلك الغرفة التي من الممكن أن تكون سببًا في خلاصها، وفجأة ركضت إليها بكامل قواها ودلفت داخلها ثم أغلقت الباب خلفها، وبعد أن أخذت أنفاسها المتلاحقة تطلعت في تلك الغرفة ورمقتها رمقات فاحصة، فتفاجأت بأنها غرفة مكتب كبيرة جدًا ومحاطة بكتب متعددة في مختلف المجالات، ولحظات بسيطة وقد أحست بخيال الشبح يقترب من باب الغرفة، فقامت بوضع كفها على فمها حتى تكتم أنفاسها، ثم تراجعت للخلف إلى أن اصطدمت بظهرها في مكتبة خشبية كبيرة وعلى إثر ذلك الاصطدام قد وقعت بعض من الكتب أرضًا فأصدرت صوتًا قد أرهبها داخليًا، فتحركت بعيدًا عن موضع الكتب الملقاة حتى تلملم ما تبقى منها من قوة، وفجأة تشخصت عيناها على الكتب الملقاة أرضًا؛ وذلك حينما لفت انتباها نوتة كبيرة ومسجل في منتصفها "ساعة القصاص"

- ٢٠ -

النهاية

وبعد مرور وقت لا أعلم حسبانه، هل هو بالقليل أو الكثير، أفقتُ من غشياني الذي لاحقني بعدما ضربتني تلك الصغيرة بذلك السكين الذي أصابني، أفقتُ على أصوات وتحركات تحدث داخل قصري، أصوات لا أعلم مصدرها، هل هي أصوات لأشخاص حقيقية توجد في دنيانا؟ أم أنها أصوات مكملة لتلك العائلة التي أتت كي تنتقم مني وتريد هلاكي؟ فحاولت النهوض بنفسي وأنا ممسك بذراعي الذي لا تتوقف دماؤه الغزيرة عن السريان، ثم تحركت خارج غرفتي كي أستكشف ما يحدث بالأسفل، فمن الممكن أن يكون شخصًا غريبًا قد أتى ليساعدني، ولكنني أعلم جيدًا بأن كل من تبقى من سكان تلك البلدة لا يطيقون وجهي واسمي بسبب ما اقترفته في سابق السنوات، وعندما خرجت من الغرفة

وتحركت في ذلك الممر الطويل الذي تلون بدمي المختلط لدم تلك العائلة الراحلة، وقع نظري صدفة على تقويم مثبت على الجدار بجوار إحدى الغرف، إنه السابع والعشرون من شهر ديسمبر، فتسمرت مكاني أمام ذلك التقويم الذي ذكرني بما حدث في تلك الليلة، إنها نفس الليلة التي أحيا فيها أنا الآن وكنتُ غافلًا عنها، فالآن قد علمت لماذا أتت تلك الأرواح الخبيثة متحدة مع بعضهم البعض.. إنه القصاص الذي لا مفر منه.

* * * *

وعندما وقع نظرها على تلك النوتة، انبطحت أرضًا وأخذتها بعدما لفت ذلك الاسم المدون عليها انتباهها، ثم تحركت وجلست على مقعد المكتب الخشبي كي تقرأ صفحاتها التي أثارت الفضول والتساؤلات داخلها، ففتحت أول صفحة متطلعة لكل كلمة مدونة فيها:

- في ليلة السابع والعشرين من شهر ديسمبر في إحدى السنوات الماضية، كانت ليلة شتاء قارصة مصاحبة لصاعقة البرق والرعد التي لا تكف عن اندلاعها، وكأن تلك الصاعقة كانت خير شاهد ودليل لما حدث في تلك الليلة التي كانت نهاية تلك العائلة، تلك العائلة التي هلكت بسببي وبسبب ذلك الطفل الذي استغللت برائته من أجل هدف ما يسكن داخلي.

في ذلك القصر كنا نمكث فيه جميعًا، سليم الابن الأكبر لنبيل عمورية ومعه زوجته رحاب التي تزوجته على مضض لكونه ابن عم لها فقط، فكان قلبها رافضًا له وبشدة، ولكنها تزوجته بعدما صمم أبوها على هذا

الزواج كي يتوسع نسب تلك العائلة بعدما رحل كبيرها على يد سكان تلك البلدة، فأنجبت منه ابنها الأكبر جاسر ثم ابنتها الصغرى مريم التي تفاجأنا بأمرها لاحقًا، أعلم أنها كانت رافضة لذلك الزواج من أجل رجل آخر تحبه حب الجنون، ولكنني لم أعلم أن من يسكن داخل كيانها هو زوجي فؤاد، إنه زوجي وابن عم تلك المرأة التي تدعى رحاب، بالإضافة إلى أنه الأخ الأصغر لزوجها، لقد خانت زوجها بمشاعرها التي كانت قائمة قبل زواجها في بداية الأمر، ولكن حينما توفي والدها ووالدة زوجها تمردت تلك المشاعر عن ذلك الوضع المؤرق وأخذت طريقًا آخر، الطريق الذي أفنى شبابها وشباب زوجي، بل وشبابي أنا أيضًا، في مثل هذا اليوم الذي أدون فيه هذه المذكرات هو نفس اليوم الذي حدثت فيه الجريمة على أكمل وجه، وذلك بعدما علمت قبلها بيومين حقيقة تلك الطفلة التي تدعى مريم، إنها أخت لجاسر حقًا، ولكنها أخت له من أمه فقط، إن تلك الطفلة نتيجة حب محرم جمع بين رحاب وفؤاد، لقد زين الشيطان سوءتهما وفعل فعلتهما الشنيعة تحت مسمى الحب القائم في الوجدان دون مراعاة من قبلهما سواء لزوجها سليم أو لزوجته لينا التي تسطر نهايتهم الآن.

كنتُ خارج القصر في تلك الليلة، وكنتُ سأبيت عند أبي الماكث في بلدة أخرى، ولكن شاءت الأقدار وعدتُ إلى قصري كي أكتشف أمرهما، لقد سمعت حديثهما سويًا فى غرفة نومي وهي تبلغه بأنها نادمة على فعلتها الشنيعة التي تقترفها في حق زوجها، وعندما تصنت بمسامعي بالقرب من باب غرفتي، علمت ما هي تلك الجريمة التي تتحدث عنها تلك

السيدة، فكانت تضع المنوم لزوجها بأمر من زوجي كل ليلة حتى يلتقيا بجسدهما قبل كيانهما في غرفة مخصصة لعشقهما الهالك، عشقهما الهالك الذي أثمر عنه طفلة دونت في السجلات الحكومية باسم زوجها البائس الذي يظن بأنها ابنته ومن نسله مع أنها في حقيقة الأمر حاملة لاسم أخيه وليس اسمه هو، في تلك اللحظة أحسست بالموت الحقيقي، لقد صعقت بما سمعت، زوجي على علاقة بزوجة أخيه، إنها علاقة محرمة في كل الأديان السماوية، وغريبة على مسامع تلك البلدة، وفجأة وجدت صوتًا من خلفي يحدثني ويقول لي:

- كنت مثلك أنصت لحديثهما الذي دمرني تدميرًا، ولكنني اختبأت عندما أحسست بوجودك كي تأتي وتشاركيني في مصيبتي.

فاستدرت بجسدي لذلك الصوت الذي أعلمه علم اليقين، أنه الطفل جاسر الذي لم يكمل منتصف عقده الثاني، فوقفت أمامه عاجزة مقيدة بسلاسل عنوانها الضياع والصدمة، فوجدته يقترب مني أكثر ثم سحبني من ذراعي إلى غرفة أمه، وعندما دلفت معه لداخل الغرفة وجدته يحدثني وكأنه رجل رشيد وبالغ:

- إنها كارثة بكل المقاييس ولو افتضح ذلك الأمر لهلك أبي وهلكنا معه جميعًا.

فحدثته بعدما جففت دموعي المتناثرة:

- أتقصد أن نمحي ذلك الأمر من ذاكرتنا خشية من هلاك أبيك لو علم حقيقة علاقتهما!

فأجابني جاسر قائلًا:

- بالطبع يا زوجة عمي.. إنه مقصدي.

ثم أكمل حديثه بعدما ابتعد عني خطوات بسيطة قائلًا:

- أعلم أن الخيانة ليس لها مبرر على الإطلاق وأن فعلتهما يهتز لها عرش الرحمن، ولكن أبي مريض ولو علم طبيعة ما حدث لهلك مني وأنا بحاجة إليه كي أستمد منه ضعفي وخذلاني من تلك المرأة التي تحمل لقب أمي.

فحدثته قائلة:

- تريد مني أن أكتم أنفاسي وأنهي حياتي بيدي وأنا أرى زوجي في أحضان أمك كل ليلة! تريد مني أن أتستر على فعلتهما التي أثمرت بطفلة منسوبة لأبيك في كل الدفاتر الحكومية!؟ إنك مخطيء يا جاسر، لستُ أنا التي ترى خيانة زوجها أمام نصب أعينها وتظل مكانها صامتة دون حراك، لستُ أنا المرأة الضعيفة التي تأخذ حقيبتها وتذهب إلى منزل أهلها بعدما تطلب منه الطلاق وكأن الطلاق انتقام لكرامتها المهدرة.. لستُ أنا.. أتسمع! لستُ أنا، أنا سأثور وأعلن تمردي عن وضعهما المخجل وسأنتقم لكبرياء الأنثى التي تحيا داخلي، سوف أقلب بيدي سماء حبهما الواعد إلى أرض مهدمة، أرض خالية من أي مظاهر للحياة.

فحدثني جاسر متسائلًا بعدما رآني لأول مرة في مثل هذه الحالة:

- ماذا ستفعلين يا زوجة عمي؟

فأجبته بعزم:

- القصاص.

فحدثني في تلك اللحظة بطفولته التي تسكن داخله:

- هل ستتبعي نفس المبدأ الذي سلكاه وستخونينهما مع أبي؟

فنظرتُ إليه في عطف ثم أمسكت ذراعيه وحدثته:
- بلى يا صغيري، ولكن سأقضي على شبابهما وثمرة حبهما الواعد.
وقبل أن أكمل حديثي مع ذلك الطفل، سمعنا صوت ارتطام على مقربة منا، فتحركت أنا وذلك الطفل في فزع ثم فتحنا باب الغرفة، فتشخصت عينانا فجأة وتراخت أعصابنا بعدما وجدنا سليم زوج الخائنة هو من انبطح أرضًا، لقد سمع حديثنا سويًا بشأن أمرهما فلم يعده التحمل، بل سقط جثة هامدة على إثر ما سمع، قلبه الضعيف الذي يعاني منه منذ سنوات جعله فريسة لموته على يد زوجته وأخيه.
وبعد أن تمت مراسم الدفن من قبلنا، تراقصت الدنيا أمام أعين زوجي؛ لأنه سيحصل على كنزه الثمين الذي لا يستطيع البعد عنه لحظة واحدة، نظرات عيونه الحانية إليها كانت تُشعل داخلي بركانًا من الغضب ليس بمقدوري إخماده، أعلم أنه حين انقضاء عدتها سيتزوجها من أجل المحافظة على زوجة أخيه من الذئاب البشرية المحاوطة لها، ولكنه لا يعلم بأنه هو أكبر ذئب بشري نال منها مثلما هي نالت مني أنا وذلك الصغير الذي أصبح ينهرهما بشدة؛ لأنهما السبب في وفاة والده.
وبعد وفاة أبيه بيومان، في تلك الليلة العاصفة، وفي تمام الساعة الثالثة فجرًا، ذهبت إليه في غرفته كي ننفذ خطتنا المعهودة بيننا، فتحرك معي وكأنه مغيب بأثر الحزن المتربع داخله على أبيه، ثم ذهبنا إلى غرفة زوجي النائم في سريره، فاقتربنا منه ونظرات الشر تحتل ملامحنا، وما هي إلا لحظات بسيطة وقد فارقت روحه جسده الهالك وصعدت إلى السماء وذلك عندما كشفنا عما وراء ظهرنا، إنه سكين كبير في قبضة يدانا انزرع

في قلبه مرات عديدة دون رحمة ولا شفقة منا، وحينما تأكدنا من وفاته نظرنا لبعضنا البعض وعلامات الانتصار مرسومة على ملامحنا، ثم تحركنا سويًا متجهان إلى الغرفة الأخرى، الغرفة التي تمكث فيها تلك الطفلة ابنة المرأة الآثمة التي تبلغ من العمر سبع سنوات، فتقدمت نحوها وحاولت إيقاظها رغمًا عنها ولكنها أبت أن تستيقظ وكأنها لم تنم طيلة عمرها، فنظرت إليه، فتقدم نحوي على الفور ثم اقترب منها ونظر إليها، ثم نظر إليّ، وما هي إلا دقائق معدودة وقد ذهبت مثل أبيها مفارقة تلك الدنيا بهدوء مثلما فعل، فبعدما نظرت إليه اقترب منها أكثر، ثم مد ذراعيه حول عنقها وظل يعصد به بكامل قوته وعندما تأكد بأن روحها قد فاضت لخالقها، ابتسم ابتسامة عريضة وعلى إثرها تعالت ضحكاتي فامتزجت مع صوت الرعد الذي يحتل مسامعي وعندما شاهد علامات النصر والفرحة على ملامحي تعالت ضحكاته هو أيضًا، بل صعدت إلى عنان السماء مهللة.

في تلك اللحظة كانت تقف أمه، سارقة زوجي على مقربة من باب غرفة طفلتها، كانت تقف خلفنا عاجزة حتى عن الصراخ على طفلتها التي قُتلت غدرًا من قبلنا دون ذنب اقترفته سوى أنها ابنةٌ لشخصين آثمين قد غلبهما الهوى، وفجأة أحسسنا بركوضها الذي جاء بعد تلاشي كيانها، كانت راكضة كي تذهب إلى غرفة حاميها، حاميها الذي رأته أمام مرمى بصرها راقدًا في فراشه والدماء متناثرة منه، كنت أعلم إحساسها في تلك اللحظة، أنه إحساس الفناء والعدم، فخرجت منها صرخة مزقت كيانها، صرخة أودت بحياتها وذلك حينما أكملت ركضها بعيدًا عن تلك الغرفة

عبر ذلك الممر الطويل حتى تهبط درجات القصر كي ترحل ناهضة بحياتها قبل أن ننال منها، ولكن من سوء حظها بأن قدماها قد تعثرت وهي هابطة على درجات القصر في عجالة، مما أدى إلى زحفها لتلك الدرجات حتى أن استقرت بجسدها في ردهة القصر عند أول درجة صعودًا، فنظرنا إليها من الأعلى وهي ملقاة على الأرض وسط دمائها المتناثرة من مقدمة رأسها، فتعالت ضحكاتي ثانية في تلك اللحظة، بينما هو تمزق قلبه عليها وترقرقت الدموع في عينيه، فاحتضنته كي أخفف عنه.

وبعد ذلك الحضن الذي أراح فؤادي وأتعب فؤاده المنهك ودعته دون إرادة مني، وذلك حينما أتت الشرطة إلى قصرنا لكي تأخذه إلى سجنها الذي هو نهايته، وذلك بعدما ثبتت عليه جريمته وهي قتله لأفراد أسرته، عمه، وأخته الصغرى، بالإضافة إلى جريمة لم يرتكبها ولكنها جاءت بترتيب من القدر ولكن النيابة نسبت مقتل أمه له، هو الذى ألقى بها عنوة كي ينهي حياتها.

فعندما أتى فريق البحث الجنائي من قبل الشرطة إلى ذلك القصر كي يتفحص حقيقة مقتلهم، أثبت أنه هو القاتل الوحيد الذي أنهى حياة تلك العائلة على الرغم من أنني مشاركة له في تلك الجرائم، ولكن ببراءة الطفل التي تحيا بداخله تمكنت من إخفاء بصماتي الموجودة على السكين الذي زُرع في قلب زوجي مرات عديدة بكل غل وجبروت.

أعلم أنني مخطئة في حقه لأنني تكالبت عليه دون مراعاة بأنه شريكي في جريمتي التي هي في الأساس من تدبيري وليس من تدبيره هو، ولكني

فعلت ذلك وألصقت التهمة فوق كاهله حتى أنهض به ثانية بعد خروجه من الإصلاحية التي سيمكث فيها لسنوات بسيطة وذلك لحداثة سنه.
فمرت السنون وهو ماكث داخل الإصلاحية لحين بلوغه سن الرشد، وعندما اكتمل عامه الواحد والعشرين ذهب إلى السجن كي يقضي باقي مدته، ولكنه خرج من سجنه إلى مشفى الأمراض العقلية على إثر حالات الصرع التي كانت تأتي إليه باستمرار، بالإضافة إلى السبب الرئيسي الذي يحيا داخله وهو الاضطرابات النفسية التي يعانيها بعدما فعل جريمته الشنعاء في حق عائلته، وبعدما قضى مدته في تلك المشفى خرج إلى بصيص الأمل الذي في انتظاره، الأمل الذي سيعوضه عن سنوات العجاف التي ذاق مرارها في كؤوس الحياة المظلمة، فعندما علمت بخروجه من محبسه ذهبت إلى ذلك القصر مرة ثانية بعدما أغلقته بعد وفاتهم وحين إلقاء القبض عليه كي أتناسى ما حدث وأحيا بحياتي بعيدًا عن الماضي، ولكني فشلت في ذلك الأمر؛ لأنني أصبحت مثله أعاني من تلك الاضطرابات المتزامنة؛ لأن شبح الماضي أصبح مطاردًا لي، فرحتي بخروجه كانت فرحة لا يُضاهيها شيء في حياتي على الإطلاق؛ لأنني بالفعل أُكنّ لذلك الطفل كل الحب والعطف داخل فؤادي بالإضافة إلى أنه شريكي في جريمتي وآخر ما تبقى لي من تلك العائلة، إنه يحتاجني مثلما أنا أحتاجه كي نعوض بعضنا البعض عما شاهدناه في حياتنا.
فذهبت إلى ذلك القصر في صباح يوم خروجه المفترض، ثم قُمت بنظافته على أكمل وجه ثم دلفت إلى المطبخ لكي أُعد الطعام المفضل له، وعندما انتهيت من نظافة القصر وإعداد الطعام دقت الساعة وأعلنت عن قدوم

منتصف الليل، موعد قدومه الذي تأخر لبضع من الساعات قد حان، فذهبت إلى ردهة القصر كي أريح جسدي الذي أهلك في ذلك اليوم لحين إتيانه، ولكن قد غلبني النعاس فجأة، فأفقتُ من غفلتي على إحساس غريب مزق كياني وجوارحي، لقد انتفض جسدي وقلبي معًا على إثر تلك الخيالات التي أحسستها تمر أمامي وخلفي، وعندما دققت بنظري شاهدت أمامي خيالات لتلك العائلة التي اندثرت منذ سنوات مضت، فتملكت الرهبة مني والفزع وصل إلى ذروته، ولحظات بسيطة وقد سمعت أصوات المطر وعاصفة البرق والرعد قد أعلنوا عن قدومهم، فانحبست أنفاسي مجددًا؛ وذلك حينما تذكرت بأن الليلة هي ليلة السابع والعشرين من شهر ديسمبر، الليلة التي أنهيت فيها مصير عائلة بأكملها بمشاركة منه، وفجأة وجدت نفسي أركض إلى داخل غرفة المكتب ولا أعلم لما ذهبت إليها، ولكني دلفت داخلها وأغلقت بابها وأنا متوجسة خائفة، فوقع نظري على ذلك المكتب، المكتب الذي كنت أجلس عليه في حين قراءتي لتلك الكتب الأدبية التي كنتُ مولعة بها في فترة شبابي، وعندما اقتربت الخيالات من باب الغرفة فتحت نوتة كبيرة كي أسطر بها تلك الأحداث التي أصبحت ملازمة لي، لقد حدثتني والدة زوجي في فترة ما بأن الليلة التي قُتل فيها زوجها نبيل عمورية على يد ذلك الشاب بمساعدة سكان البلدة كانت في مثل تلك الليلة، كانت ليلة شتاء قارص ورعد زلزل أرجاء البلدة وكأن السماء تحتفل مع أهل البلدة بتطهير أرضها من ذلك الطاغية، كانت تقول لنا بأن روح زوجها نبيل عمورية متعَبة، لم تسترح للحظة واحدة؛ ولهذا حلت لعنتها على سكان

البلدة كي يعانوا مثلما هو عانى على أيديهم، كانت والدة زوجتي تتحدث دون أن تعلم بأن اللعنة انتقلت من روح زوجها إلى روح عائلته، عائلته التي أتت في مثل تلك الليلة كي تقضي على حياتي وتنتقم مني جراء ما فعلته معهم في الماضي، قلبي يحدثني بأن تلك الليلة لن تمر عليَّ بسلام وأن ساعة القصاص قد حانت، ولكن ليس بمقدرتي الانتظار لحين إزهاق روحي من قِبلهم، لن أسمح لهم بأن ينالوا مني مثلما نلت منهم في سابق السنوات، سأذهب بنفسي لأُحدد نهايتي التي فيها راحتي واستقراري؛ وذلك لأنني قد سأمت من تلك الحياة التي أعيش فيها بمفردي بعد رحيل أبي فتركني وحيدة.

* * * *

لا زلتُ واقفًا مكاني أمام التقويم المثبت على جدران قصري، فاحتلت صور الماضي التي تحيا داخل ذاكرتي وبالأخص ما حدث في ذلك اليوم، مقتل عمي وأختي على يدي، ثم موت أمي التي كانت بالنسبة لي نفس منتظم أحيا بأثره، ثم مقتل عشيقتي التي قتلتها في مثل ذلك اليوم ودفنتها بجوار مقبرة جدي في حديقة قصري هي وجنينها الذي كان ينبض بين أحشائها، ثم انتحار زوجة عمي، فحينما خرجت من المشفى على أمل اللقاء بها وجدتها ملقاة أرضًا أسفل نافذة غرفتها غارقة في دمائها، فكانت بالنسبة لي الطامة الكبرى التي كسرت ظهري؛ لأنني أصبحت وحيدًا مطارَدًا من شبح الماضي، وعندما أفقتُ من صور الماضي المحطمة، تحركت وأنا ممسك بذراعي النازف إلى أن هبطت درجات قصري حتى وصلت إلى الردهة وأنا صائحٌ، منادي:

- هل يوجد أحد بالداخل؟ هل يوجد أحد في قصري؟
إنني أسمع أصواتًا غريبة على مسامعي، وأحسست بتحركات داخل القصر وخارجه.
لحظات بسيطة وقد تشخصت عيني جراء ما شاهدت أمامي، لقد وجدت فتاة في مقتبل العمر تخرج من غرفة مكتب عمي فؤاد، فرمقتها بنظرات فاحصة ومتسائلة، فوجدتها تقترب مني وترمقني بنظرات غامضة، وعندما وقفت أمامي حدثتها متسائلًا:
- من أنتِ أيتها الفتاة؟ ومن أتى بكِ إلى قصري في هذا الوقت المتأخر من الليل؟
فأجابتني بهدوء مصاحب للغموض:
- أنا رائحة الماضي، وقدري قد ساقني إليك في هذا الوقت.
فحدثتها وأنا مندهش:
- الماضي!!
ثم تابعت حديثي قائلًا:
- أي ماضي تتحدثين عنه أيتها الفتاة؟ تحدثي؟
فأردفت قائلة:
- ماضيك المشين الذي انكشف ستاره أمام نصب عيني، ماضيك الذي سيلاحقك ما دمت حيًا، ماضيك الذي جنى على أرواح بشرية كانت تمكث بين جدران ذلك القصر وخارجه.
ثم تابعت كلامها وقالت:

– أنا ابنة تلك الفتاة التي راودتها عن نفسها وسلبت منها أعز ما تملك، أنا ابنة عاشقتك يا جاسر، عاشقتك صفية التي قتلتها بدم بارد باسم لوعة الحب.

فتملكت الدهشة من ملامحي، ثم حدثتها قائلًا:

– ابنة صفية.. كارما.

فحدثتني قائلة:

– أما زلت تتذكرها وأنت من أزهقت روحها! أما زلت تذكر اسمها ويدك ملطخة بدمائها!

وقبل أن تكمل حديثها حدثتها متسائلًا:

– كيف أتيتِ إلى قصري؟ ولما أتيتِ؟

فأجابتني قائلة:

– جئت إلى القصر بترتيب من القدر دون أن أعلم شيئًا عن ماضيك المخجل، جئت إليك يا جاسر من أجل القصاص حتى ترتاح تلك الأرواح المعذَبة.

فتملكت الرهبة والخوف مني أكثر حتى أن أحسست بألم ذراعي المؤلمة، ثم حدثتها:

– القصاص...الأرواح المعذبة.

فتطلعت في ملامحي الغائبة، بعد أن تقدمت مني وجهًا لوجه، ولكن قبل أن تفعل شيئًا، قد أصدر بندول الساعة دقاتة التي أرهقت مسامعي، إنها تلك الساعة التي أنهيتُ كل شيء فيها في سنواتي الماضية والتي من الممكن أن تكون آخر ساعاتي في تلك الليلة، إنها الساعة الثالثة فجرًا.

وفجأة أحسست بشيء غريب دمر كياني وكيانها، أحسسنا كأن زلزلة الساعة قد قامت، لقد انفتحت أبواب القصر جميعها مرة واحدة، وأحسسنا بتصدع في جدران القصر وكأنها تنهال علينا ثم انطفأت الأنوار بأكملها وأصبحنا في ظلام دامس، فهتفتُ عليها مرات عديدة على أمل خلاصي، ولكن الرياح العاتية التي أتت بسرعة رهيبة جعلتني أنا وهي نتطاير في أركان متفرقة في ردهة القصر، كانت صرخاتنا تعلو وتعلو أثناء ارتطام أجسادنا بمحتويات القصر المتفرقة وكأننا كنا نعبر على الصراط المستقيم فانزلقت قدمانا وسقطنا في نار جهنم الحارقة، وبعد دقائق من الصرخات المتتالية التي لم تنقطع من قبلي، حاولنا النهوض بنفسنا ثم توقفنا ثانية وأنا ما زلتُ صارخًا من شدة آلام ذراعي التي لم تكف بل زادت بعد ذلك الحدث المريب، فحدثتها متسائلًا:

– ماذا حدث؟ إن هذا لم يحدث لي من قبل أثناء مكوثي في هذا القصر؟ ما طبيعة الأمر؟

ولكن قبل أن تحدثني تلك الفتاة تفاجأت بشيء صاعق كأنه حطم عظام جسدي بمطرقة حديدية متوهجة، لقد وجدت نفسي أنا وتلك الفتاة في منتصف دائرة مكونة من هولاء الأشخاص، أمي وبجوارها زوجة عمي وبجوارهما صفية والدة تلك الفتاة بنفس هيئتها، ببطنها المنتفخة وبجوارها الشبح الملطخ بالدماء الذي هو في حقيقة أمره عمي فؤاد بالإضافة إلى الطفلة الصغيرة مريم وفي يدها السكين الملطخ بدمائي بعدما حاولت قتلي، وفجأة الأنوار التي أغلقت ظلت تُنار وتنطفئ وأنا عالق وسط تلك الدائرة، أموت رعبًا وألمًا، فظللت أتوسل إليهم بنظراتي

الحزينة وبنبرة صوتي الخافتة على أمل التراجع عن أمرهم المحسوم، ولكن نظراتهم وتحركاتهم حولي قد أعلنت نهايتي، فنظرتُ إلى الفتاة التي توجد معي في تلك الدائرة، ثم حدثتها وأنا فزع:

- كارما...أنقذيني منهم يا كارما...أنا لا أريد الموت...لا أريد الموت.

فنظرت إلي وهي صامدة دون أن ترتجف لحظة واحدة ثم حدثتني:

- الدائرة غير مكتملة يا جاسر ولهذا فقد أتوا واتحدوا جميعًا من أجل إكمال دائرتهم الناقصة.

فحدثتها بنفس فزعي قائلًا:

- الدائرة...

ثم تطلعتُ إلى عيونها الحمراء التي أفزعتني وحدثتها:

- هل أنتِ شبح مثلهم أم أنتِ إنس من بني البشر؟ أجيبيني أيتها الفتاة؟

فأجابتني وهي تلتف حولي مع التفافهم الذي لا يتوقف قط:

- أنا روح متلاشية تريد أن تحصل على راحتها واستقرارها، وراحتي في القصاص منك يا حفيد عمورية، قد جاء هؤلاء من أجل القصاص منك حتى ترتاح أرواحهم المعذَبة، وترقد أجسادهم في قبورهم بسلام، ولكن حينما ساقني القدر إلى تلك البلدة وحينما اكتشفت حقيقة والدتي وأمر جرائمك المشينة قررت أن أكون قائدة لهذه الدائرة.

في تلك اللحظة أحسستُ بأن قلبي قد توقف بالفعل؛ لأنني قد صُعقت من حديث تلك الفتاة، فوجدتها تتابع حديثها قائلة:

- تلك الأرواح الموجودة خلفك قد جاءوا من أجل القصاص منك، وأنا كذلك قد جئتُ من أجل ما أتوا به، سوف أمحي بيدي آثار نسل عمورية،

سوف أطوي صفحات تلك العائلة بيدي حتى لا تنتشر في الأرض وتزهق أرواحًا أخرى.. موتك قد حان على يدي يا جاسر.

ولحظات بسيطة فوجدتها تتحرك ناحية أختي مريم، ثم أخذت منها السكين وتقدمت بها أمامي، فكانوا جيمعًا يتطلعون إليها وكأنهم في انتظار النهاية التي يريدونها منذ سنوات، فنظرت إليها ولحركة السكين التي تتقدم نحوي بكل قوة منها وعيوني متشخصة من ذلك الحدث، ولكنها توقفت للحظات عن قتلي واختفت تلك الأرواح من حولي بسرعة البرق.. وذلك حينما أتى صوت غريب على مقربة من باب قصري يهتف عليها قائلًا:

- كارما...لا يا كارما من فضلك توقفي.

فنظرت تلك الفتاة لذلك الشخص ثم حدثته بدهشة:

- ماجد!!

فتقدم ذلك الشخص إليها ومعه طفل صغير عمره لا يتجاوز الحادية عشر، ثم حدثته تلك الفتاة بنبرة الدهشة الموجودة على ملامحها:

- كيف أتيت إلى هنا؟ ولماذا أتيت يا ماجد؟

فأجابها:

- أتيت باحثًا عن طوق النجاة لخروجنا، أتيت من أجل إنقاذك من هذا المكان المليء بالأشباح التي رأيتها بعيني.

ثم تابع حديثه متسائلًا:

- ولكن ماذا تفعلين مع ذلك الشخص؟ ولما تصوبين السكين ناحية قلبه؟ هل حدث شيء ما؟

فحدثته قائلة:

– لقد حدثتني بأن قدومنا لهذا المكان الغامض هو لحكمة يعلمها الله.. فكنت أتساءل مع نفسي أي حكمة يقصدها ماجد وهذا المكان مخيف ومليء بالأشباح وخالي من أي مظاهر للحياة، ولكن الآن تأكدت بأن حديثك كان على صواب، لقد شاءت الأقدار وأتت بي إلى ذلك المكان من أجل حكمة يعلمها الله وكنت أنا غافلة عنها، لقد جئت يا ماجد من أجل القصاص لوالدتي، والدتي التي زهقت روحها في هذا القصر على يد هذا الطاغية.

فتملكت الدهشة من ملامح الشاب ثم حدثها:

– والدتك! كيف وأنتِ أخبرتني بأن والدتك تقطن في مدينة بازوكلي وتموت عليكِ قلقًا ورعبًا؟

وفجأة تطلعنا جميعًا إلى ذلك الصوت الأنثوي الذي وجدناه يتقدم نحونا هي وزوجها، ثم حدثت الفتاة قائلة:

– في مثل هذا اليوم قد خرجت من ذلك القصر هاربة بعدما وجدت جسد أمك ملقًا على تلك الردهة كي أنهض بكِ أنتِ وأخيكِ آسر، كنت ضعيفة منكسرة أمام ذلك الطاغية، ولم أقدر أنا وأبوكِ حسن على فعل شيء سوى النهوض بحياتكما وتناسي ما حدث، ولكن شغفك الذي تربع داخل كيانك بمعرفة أين هي والدتك التي اختفت فجأة، والتي كنت أتهرب من إجابتك سنوات عديدة، فانحبست تلك الأسئلة داخل ضلوعك مع صورة الماضي الضبابية التي كانت مرسومة في مخيلتك هي من ساقتكِ إلى بلدتك للحصول على تلك الإجابات التي يريدها فؤادك.

فأجابتها كارما قائلة:

– لقد علمت يا أمي طبيعة ما حدث لصديقتك صفية، صفية التي حملتني في بطنها وسهرت على راحتي طيلة التسع سنوات التي قضيتهم معها داخل أحضانها في تلك البلدة؛ ولهذا سوف أريح جسدها الذي أفنى دون إرادة منها، سوف أقتص من ذلك الشخص الذي فشلتِ في الاقتصاص منه في السنوات الماضية حتى تستكين روح أمي الحائرة.

ثم تقدمت تلك الفتاة مني ونظرت في عيوني ثم تحدثت:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

وفجأة حدثها ذلك الشخص قائلًا:

– كارما من فضلكِ عودي لصوابك ولا تُقدمي على ذلك الفعل...رجاءً منكِ ألا تقتليه ودعي عذابه لرب السماوات والأرض.

فحدثته قائلة:

– أتريد أن أتركه يحيا حياته وأمي ترقد تحت التراب هالكة! أتريد أن يتنعم بحياته وأذوق أنا مرارة الأيام! ماذا حدث لعقلك يا ماجد؟

فحدثها وقال:

– أنا خائف عليكِ يا كارما...أخاف أن تتلوث يدك بدمائه فتصبحين على فعلتك نادمة...تقدمي معنا وأتركِ الماضي واحيي حياتك مع أخيكِ وعائلتك...ودعي عقابه لربه...ربه الذي أعلم بحالنا وحاله...اتركيه رجاءً منكِ.

فسكنت جوارها وهدأت رويدًا بعد حديثه الذي فيه عين الصواب، ثم نظرت لأخيها حينما تحدث قائلًا:

- أختي من فضلك أنصتي لحديث ماجد فحديثه لا يعيقه شيء على الإطلاق...اتركي ذلك العدو لملاقاة مصيره مع ربه...إننا بشر ولسنا آلهة لكي نصدر أحكامنا على غيرنا.

فحدثها ماجد قائلًا:

- أسمعتِ حديث أخيكِ الصغير...أخيكِ الذي تعيشين بأثره يا كارما... إنه في حاجة لوجودك مثلما أنتِ بحاجة إليه... هيا يا كارما... تقدمي معي كي نخرج من هذا المكان ونعود لحياتنا ونتناسى طبيعة ما حدث.

فحدثها الصغير:

- أنصتي لحديث ماجد يا كارما...تقدمي معنا كي نخرج من ماضينا وننهض ناحية المستقبل...المستقبل الذي في انتظارك يا أختي...عملك كمهندسة يهتف لكِ... تذكريه يا أختي...إنه حلمك الذي راودك والذي سعيت لتحقيقه بعد عناء ليالٍ طوال...هيا بنا يا ابنة أمي...هيا.

فنظرت إليه هو وماجد، فوجدت الراحة في حديثهما بينما نظرت لتحية الباكية ولزوجها حسن الرابض على كتفها تذكرت أمها صفية، صفية التي جاءت بها إلى هذا المكان من أجل أخذ حقها المسلوب ولهذا تغيرت ملامح تلك الفتاة ثم نظرت إليّ نظرات شاخصة وعلى إثرها أصدرت صوتًا قد أفزعهم جميعًا، لقد شهقت بعدما صوبت السكين داخل قلبي، فنظر إليها الجميع في حالة فزع، بينما حدثها ماجد في ضعف قائلًا:

- لماذا يا كارما؟ لماذا؟

فألقت السكين على الأرض ثم حدثته، وأنا ممسك بجرحي النازف إلى أن ارتميت أرضًا:

– كي ترتاح روح أمي المعذَبة يا ماجد.. كي يرتاح فؤادي الهالك بهلاكها.
فنظر إليها ماجد بنظرات أسف ثم خرج من القصر وهو في حالة حزن، بينما دموع الصغير لم تتوقف عن سريانها.
فتحدث حسن زوج تحية قائلًا بضعف:
– هيا بنا نعود إلى بلدنا ونترك الماضي الذي اندثر...ونطوي صفحات تلك البلدة بإيدينا ونتناسى ما حدث في ذلك القصر...هيا.
فتقدم حسن ومن خلفه كارما وآسر كي يخرجوا من ذلك القصر، ولكنهم استداروا بجسدهم على إثر صرخاتي الممزقة، لقد أمسكت تحية بالسكين التي ألقتها كارما أرضًا بعدما تحركوا ثم تقدمت نحوي وصوبتها في قلبي مرات عديدة وكأنها تشفي غليلها مني.
فحدثها زوجها فازعًا:
– ماذا فعلتِ يا تحية؟!!
فردت عليه وهي تأخذ أنفاسها:
– فعلت ما فشلت في فعله في الماضي يا زوجي.
فنظر الصغير إليهم في خوف ورجفة ثم ركض مسرعًا إلى الخارج هاتفًا عليه:
– صديقي ماجد...لا تتركني مع هذه العائلة التي تلطخت يدها بالدماء.. خذني إلى مدينتك وانهض بي بعيدًا عن هذا البلاء...خذني يا صديقي.
وأثناء احتضاري نظرت إليهم ثم تحدثت في وهن:
– لقد انتقمت عائلتك مني يا صفية من أجل إخماد روحك الثائرة، ولكن أنا لن أصمت على تلك الفعلة.. سوف أقتص منهم جميعًا.. روحي

الهالكة سوف تطارد عائلتك أينما كانوا وبالأخص من جاءت كي تقضي على آخر نسل نبيل عمورية.. إنها ابنتك كارما.

* * * *

بينما هي فكانت جالسة على مقعد منضدة الطعام، كانت في انتظاره من ليلة أمس، ولكنه أخلف وعده معها ولم يأتِ بعد، فنظرت في ساعتها فوجدت أن الساعة قد تجازوت الخامسة والنصف وأن الصبح قد أعلن عن قدومه، فنهضت من مكانها ثم توجهت إلى باب الشقة وهي في حالة من الشجن الدفين ثم خرجت من المنزل بأكمله وذهبت إلى ذلك المكان المفضل إليها، إنه برج لاكي الذي صعدت إليه بعد معاناة من الصعود على درجاته الملتوية حول بعضها، فتشبثت بالقرب من سوره الحديدي ثم أخذت من جيب فستانها تلك البالونة البيضاء التي كانت محتفظة بها كي تذكرها بزوجها الغائب، ثم قامت بملئها بهواء أنفاسها المتلاشية وبعد أن انتهت قامت بإلقائها في الهواء ثم تحدثت في ضعف:

- ليس لكِ مكان داخل فؤادي لأن فؤادي قد رحل بغياب زوجي ماجد...قد حان الوقت لتذهب مـايـا إلى عائلتها الراحلة حتى تستأنس بهم وتحيا بتراب أجسادهم التي فنيت...قد حان وقتك يا مايا حتى ترتاح روحك المعذَبة.. قد حان وقتك الذي لا تراجع فيه ولا استسلام.

تمت بحمد الله

عادل غالي

الفهرس

الفصل الأول	٩
الفصل الثانى	١٣
الفصل الثالث	١٩
الفصل الرابع	٢٧
الفصل الخامس	٣٥
الفصل السادس	٤٣
الفصل السابع	٥١
الفصل الثامن	٥٩
الفصل التاسع	٦٧
الفصل العاشر	٧٥
الفصل الحادى عشر	٨٣
الفصل الثانى عشر	٩٣
الفصل الثالث عشر	١١١
الفصل الرابع عشر	١٢٥
الفصل الخامس عشر	١٣٧
الفصل السادس عشر	١٤٩
الفصل السابع عشر	١٦٧
الفصل الثامن عشر	١٧٥
الفصل التاسع عشر	١٩٥
الفصل العشرون (النهاية)	٢١٣